في هذا العالم الذي فقَدَ خُلُق الحياء، بحيث بات كل قوي فيه يصنع ما يشاء، لا غرابة أن يَلْقى الإنسانُ ألوانا شتى من الأذى، غير أن ما يلقاه "الإنسان الفلسطيني" من أذى الأباعد والأقارب جميعا ليس له نظير ولا تقدير، ناهيك عما يقاسيه من "الكيان الإسرائيلي" الذي أضحى إيذاؤه لا وصف له كأنه الشر المطلق؛ إذ أن أشكال هذا الأذى الإسرائيلي أكثر من أن نحصيها واحدا واحدا، فلا نكاد نحصي ما وُجد منها في الآن، حتى تفاجؤنا أشكال أخرى لم تكن في الحسبان.

وحتى نقف على حقيقة هذا الإيذاء الذي أشبَهَ الشر المطلق، نحتاج إلى أن نعرف حقيقة هذا الإنسان الذي أوذي أيما أذى؛ فالإنسان الفلسطيني له خصوصية ليست لسواه، إذ أرضه "ملتقى العوالم "، الشهادي منها والغيبي؛ وإرثه "ملتقى الأبعاد"، الزمني منها والسرمدي؛ ومن كانت هذه صفاته، لا تفيد في معرفة حقيقته "المقاربة التاريخية"، لأنها تُسقط بعده السرمدي، حتى ولو لم تُسقط عالمه الغيبي؛ كما لا تفيد، في هذه المعرفة، "المقاربة القانونية"، لأنها تُسقط عالمه الغيبي حتى ولو لم تُسقط بعده السرمدي، ولا، بالأولى، تفيد فيها "المقاربة السياسية"، لأنها تُسقط عالمه الغيبي وبعده السرمدي كليهما، فتكون أبعد المقاربات، وصولا إلى معرفة حقيقة هذا الإنسان، مَثَلُها في ذلك مَثَل من يبتغي أن يزن الجبل بميزان الذهب، بل، أدهى من ذلك، لأن هذه المقاربة تنطوي على عنصر تحليلي يناقض، كما سيأتي بيانه في موضعه، حقيقة هذا الإنسان، مَثَلها في ذلك مَثَل من يبتغي أن يولج الجمل في سم الخياط؛ ومع ذلك، تبقى "المقاربة "السياسة" هي الاختيار المنهجي الطاغي اليوم في تناول الأذى الواقع على الفلسطيني؛ وفي هذا دلالة على أننا لا زلنا بعيدين عن إدراك هذه الحقيقة؛ فالإنسان الفلسطيني لا يمكن أن تُعرف حقيقته، ولا أن تدفع أذيته، إلا بمقاربة تصل العالم الشهادي لأرضه بعالمها الغيبي، كما تصل البعد الزمني لإرثه ببعده السرمدي.

وغرضنا في هذا الفصل هو على وجه التحديد، أن نسلك مقاربة فلسفية لا تُجرد الأرض الفلسطينية من أي عالم من عوالمها، بل تحفظ لها هذه العوالم كلها، ولا تُجرد الإرث الفلسطيني من أي بعد من أبعاده، بل تحفظ له هذه الأبعاد كلها، عسى أن نتبين طبيعة الأذى الفلسطيني، ونهتدي إلى طريقة دفعه.

ومبنى هذه المقاربة التي أطلقنا عليها اسم "المقاربـة الائتمانيـة" على مبدإ أساسي، وهو أن لكل شيء بعدين، أحدهما الصورة، وهي المظهر الخارجي؛ والثاني، الـروح، وهي الجـوهر الـداخلي، بنـاء على أن الـروح (أو الجــوهر الــداخلي) هي الأصــل في تفســير الصــورة أو المظهــر الخارجي وأن الصورة إنما هي تعبير عن الـروح أو، إن شـئت قلت، هي تصوير لها. وإذا نحن طبقنا هذا المبدأ الائتماني على الإيذاء الإسرائيلي، تــبين أن صــورة هــذا الإيــذاء تقــوم على وجــه الإجمــال، في إيــذاء الفلسطينيين من جانبين، أحدهما: "إيذاء الأرض التي بارك فيهـا ربهم"؛ والثــاني، "إيــذاء الإرث الــذي أنتجتــه فطــرتهم، ومــتى تأملنــا هــذين الإيذاءين: "إيذاء الأرض المباركـة" و"إيـذاء الإرث الفطـري"، وجـدنا أن روح "إيذاء الأرض المباركة" تتمثل، بالذات، في إيذاء الـذي بـارك هـذه الأرض، أي إيذاء الإله)، وأن روح "إيذاء الإرث الفطري" تتمثل، بالذات، في إيذاء الـذي أنتج هـذا الإرث، أي "إيـذاء الإنسـان"؛ تـترتب على هـذا نتيجتان

أولاهما، أنه لما كانت الـروح هي الأصـل في تفسـير الصـورة، وجب أن يكون "إيذاء الإلـه"[1] هـو الأصـل في تفسـير "إيـذاء الأرض"، وأن يكـون "إيذاء الإنسان" هو الأصل في تفسير "إيذاء الإرث".

والثانية، أنــه لمــا كــانت "مســألة الإلــه" و "مســألة الإنســان" لا تعنيــان الفلسطينيين وحدهم، وإنما تعنيان الناس كافـة، فقـد لـزم أن لا يختص الإيذاء الإسرائيلي بالفلسـطينيين وحـدهم، بـل يعم غـيرهم من النـاس، بحيث يتـوجب على غـير الفلسـطيني أن يشـتغل اشـتغال الفلسـطيني بدفع الأذى الإسرائيلي الذي لحق الإله من حيث هو إله ولحـق الإنسـان من حيث هو إنسان.

وهاهنا، تُطرح أسئلة ثلاثة تتعيّن الإجابة عنها،

أحدها: كيف يتجلى إيذاء الإله عند الإسرائيليين؟

والثاني : كيف يتجلى إيذاء الإنسان عندهم؟

والثالث: كيف يمكن التصدي لهذين الإيذاء ين؟

1. احتلال الأرض وإيذاء الإله

يمكن القول بأن إيذاء الإله عند الإسرائيليين يشهد به تاريخهم الطويل؛ إذ أن ذاكرتهم التوارتية والتلمودية تحفظ أن أسـلافهم، منـذ أن خرجـوا

[1] الأصل الذي اعتمدناه في استعمال عبارة (إيذاء» «الإله هو ا الآية القرآنية: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ هُمْ عَذَابًا مُّهِينًا، سورة الأحزاب، 57.

من مصر، وهم ينقضون المواثيق والعهود التي أخذها الحق سبحانه منهم، ويخالفون أوامره ونواهيه، ويؤذون أنبياءه ورسله إليهم، حتى كأنهم في حرب سجال معه[2]؛ ولما كانت هذه الذاكرة تُحدد مسالكهم في حاضرهم، فقد عادوا إلى هذا الإيذاء الأول، يُحيون به غابر ماضيهم؛ وتجلت عودتهم الحالية إلى إيذاء الإله في واحد من أفحش وجوهه، ألا وهو منازعة الإله في صفة عظمى من صفاته[3]، وهذه الصفة هي "المالك"؛ فالحق سبحانه هو المالك المطلق الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء؛ لكن هؤلاء الإسرائيليين أبوا إلا أن يكونوا هم المالكون وغيرهم هم المملوكون، بل أرادوا أن يستأثروا بالتملك، أسبابا وآثارا، حتى استوى عندهم الأمران: "الملك" و"الوجود"، فمن لا يملك، أنَّى له أن يوجد؛ وحيث إن حب التملك استبد بكلية قلوبهم، حتى إنهم، بدونه، لا يشعرون بوجودهم، فقد ركبوا كل الوسائل التي توصلهم إلى امتلاك الأرض المباركة، واتبعوا فيها كل الأساليب التي في مكنتهم، لا يبالون إن هضموا حقا أو تعدوا قانونا أو نكثوا عهدا أو خالفوا وعدا ، بل لا ينفكون يبحثون عن مسوغات التمسك بهذه الوسائل والأساليب التملكية على ظلمها وخبثها، مستشعرين أنهم يضاهون الإله في التصرف في ملكه كيف يشاء؛ وبنوا وسائلهم وأساليبهم في منازعة المالكية الإلهية على المبدإ التالي:

كل ما يمكن احتلاله من أملاك غيرهم، فهو بالضرورة، ملك لهم. لذا، اختير لهذا الاحتلال للأرض اسم يميزه عن غيره، وهو "الإحلال"؛ وحده الائتماني هو كالتالي:

الإحلال هو احتلال الأرض، منازعة للمالكية الإلهية.

وقد تجمل وسائلهم الإحلالية، كما هو معروف، في ثلاث: إحداها، الاستيلاء بالقوة على بقع الأرض، عامة كانت أو خاصة؛ والثانية، الاستيلاء على ما فوق الأراضي، منازل كانت أو منابع أو مآثر؛ والثالثة، الاستيلاء على ما تحت هذه الأراضي، أساسات كانت أو دعامات أو حفريات.

---

[2] انظر بعض القصص الواردة بهذا الصدد في كتاب التوراة.

[3]) قد بلغت هذه المنازعة حد الاعتقاد بأنهم أقدر على التحقق بمقتضيات صـ «المالكية)) منه؛ تدبر الآيتين الكريم لقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٌّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحريق، سورة آل عمران، 181؛ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ»، سورة المائدة، 64.

كمـا نحصـي من أسـاليبهم الإحلاليـة مـا يـأتي: أولهـا "الإحلال الثـابت"، وذلــك ببنــاء المســتوطنات والجــدران والطــرق الالتفافيــة؛ والثــاني، "الإحلال المتوســع"، ويتم بطريــق الضــم والإلحــاق؛ والثـالث "الإحلال المتدرّج"، ويقوم في تطبيق القوانين الإسـرائيلية وممارسـة الطقـوس اليهوديـة؛ والرابـع، "الإحلال المطلـق"، زمانـا ومكانـا؛ إذ أن كـل مـدة يستغرقها مكوتهم في أي مكان من أرض فلسطين ومـا حولهـا عَـدُّوها حقا لهم؛ وكلما طال هذا المكوث، زعموا أنهم أحق بهذا المكان كما أن كل موضع تطؤه أقدامهم، يصـير في حكم الحـيز الـذي لهم، فــ"حـدود دولتنا، كما يقول قادتهم، حيث تصل أقدام جيوشنا"؛ وحيث إنه لا اعتبار عندهم إلا للقوة وحدها، فكل ما تمتد إليه أبصارهم من أراضي غـيرهم، أضحى بالإمكان أن تطأه أقدامهم؛ بل أكثر من ذلك، كل مكـان توهمـوا أن أسلافهم مكثوا فيه قليلا أو عبروا به عبورا، حسبوه ملكا لهم؛ "إنّي، كمـا تقـول زعيمـة لهم، أشـم رائحـة أجـدادى في خيـبر"؛ والخـامس، "الإحلال المقدَّس"، ويقوم في التسلط على الأمـاكن المقدسـة، بحيث ينضبط هذا التسلط بالمبدإ التالي:

على قدر قدسية المكان المحتل، يكون الشعور بالملكية.

يترتب على العمل بهذا المبـدإ الإحلالي أنهم لا يشـعرون بـأنهم ظفـروا بمبتغاهم في منازعة الإله، حتى يملكوا ما يملك، بحيث تصير بيوته عين بيوتهم؛ وحينهـا، لا نعجب أن يهجمـوا على احتلال "بيت المقـدس" أيهـا هجوم مختلقين من خفي الخطط والحيـل مـا لا يخطـر ببـال أحـد؛ ولن يستقر لهم، قـرار، حـتى يعرضـوا "المسـجد الأقصـى" بكاملـه للـدمار؛ فيتـأتى لهم، حينهـا، أن يقيمـوا مكانـه رمـز الملكيـة عنـدهم، أي هيكلا يضاهون بـه الإلـه في الاتصـاف بالملك[4] يلـزم ممـا تقـدم أن خصوصـية الدولـة الـتي أنشـاها الإسـرائيليون، وقـد خلعـوا عليهـا أوصـاف العـدل والمساواة والحريـة، ليس الاشـتراك في التـدبير، وإنمـا الاشـتراك في التمليك، إذ أن فئاتهم تتقاسم الشؤون كما تتقاسم الغنائم، لا فقط لأن مـدار هـذه الشـؤون على الممتلكـات المسـلوبة عنـوة من أصـحابها الشرعيين، بل لأن عقولهم وقلوبهم تكيفت بوصف الملكية إلى حد أنها لا تتعامل مع أي شأن، كائنا ما كـان، إلا كشـيء يُمتلـك، إن لم يكن من نصيب هذا، فهو من نصيب ذاك؛ فحقيقة الدولة الإسرائيلية أنهـا أقـرب إلى كونها مؤسسة أعمال منها إلى كونها مؤسسة أحكام؛ ومتى سـلّمنا بـأن هـذه الأعمـال مجتمعـة تبلـغ الغايـة في منازعـة الإلـه في صـفة

[4] هذا إن لم يذهب بهم الطغيان إلى حد ادعاء التفرد بكمـال المالكيـة، لا سـيما وأن اعتقـادهم جازم بأن الذي بناه أول مرة أوتي ملكا لم يؤته أحد من العالمين.

"المالكية"، ظهر أن هذه الدولة عبارة عن النموذج الأمثل لطغيـان روح التملك؛ ولا ينقضُ هذه الحقيقة مطلقا أن وُجدت أو توجد، تحت رعايتها أو في ظلهــا، تجمعــات خاليــة من الملكيــة الخاصــة أو تكتلات آخــذة بأساليب الاشتراكية، لأن القصـد الأول من وراء إنشـاء هـذه التجمعـات والتكتلات هو، بالذات، الاستعداد لمزيد الامتلاك بطريق الإحلال.[5]

2. احتلال الفطرة وإيذاء الإنسان

لئن كــان الإســرائيليون لا يســتحيون من الإلــه، فبــأن لا يســتحيوا من الإنسان من باب أولى؛ وإذا كانوا قد آذوا الإلـه في أخص صـفاته، فبـأن يؤذوا الإنسـان في أخص صـفاته. من بـاب أولى؛ ولمـا اتخـذ هـذا الأذى صورة الاحتلال لزم أن يكون إيذاؤهم للإنســان عبـارة عن احتلال أخص ما يميزه، وهو بالذات فطرته الـتي بهـا يصـنع تراثـه الأصـيل؛ والفطـرة عبارة عن الذاكرة التي تحفظ القيم والمعاني الأصلية المبثوثة في روح الإنسان منذ خَلقه، نازلة من الروح منزلة الجوهر؛ فلنسم هــذا الاحتلال للفطرة، باعتبارها صانعة للتراث باسم "الحلول" [في مقابـل "الإحلال" الذي هو احتلال للأرض، باعتبارها ملكا للإله، منازَعةً لـه]؛ فــ "الحلــول الإسرائيلي" عبارة عن إفسـاد الفطـرة لـدى الإنسـان الفلسـطيني بمـا يجعله يتلقى بـالقبول مفاسـد احتلال أرضـه اغتصـابا وتهجـيرا وتشـريدا وتدميرا وتجريفا وتقطيعا؛ والتعريف الائتماني للحلول هو كالآتي:

الحلــول هــو احتلال الفطــرة المؤصــلة، جلبــا للقبــول بتــدنيس الأرض المقدسة. فلنوضح الآن كيف أن هذا الإفساد للفطـرة يختلـف بـاختلاف درجتي الحلول، وهما:

"قلب القيم" وهو حلول جزئي؛ و"سلب الفطرة"، وهو حلول كلي.

1.2. قلب القيم

إن إحـدى درجـات إفسـاد الفطـرة هـو فصـل الإنسـان عن بعض القيم الفطرية بما يخـدم أغـراض السـاعي إلى هـذا الإفسـاد؛ ولمـا بلـغ أذى الإسرائيليين غاية التعارض مع هذه القيم الأصلية، فقد اشتدت حــاجتهم إلى هذا الفصل، حتى يتسنى لهم أن يعبثوا بقدرة الإنسان الواقــع تحت احتلالهم على التقويم الصحيح للأمور؛ ويتمثل هذا العبث في حمله على الانتقال من القيم الفطرية إلى أضـدادها، حـتى يـرى الحـق الـذي معـه باطلا، ويرى الباطل الذي معهم ؛ ومتى تمكنوا من ترسـيخ هـذه "القيم

[5] الحكم للقصد الخفي، لا لظاهر الفعل.

الأضداد" في نفس الإنسان الفلسـطيني، أحـدثوا فيهـا أنواعـا ثلاثـة من الإفساد.

1.1.2. إفساد الذاكرة يتمثل هذا الإفساد في جعـل الفلسـطيني يقـدح في سابق اعتقاداته وقيمه أو يتخلى عنها أو ينكرهـا أو ينسـاها بـالمرة، أو حتى إذا لم ينسها، تفتر همته اتجاههـا، بحيث يسـتوي عنـده وجودهـا وعـدمها؛ ومثـال هـذا الفسـاد أن يـرى أن تعلـق المسـلمين بالمسـجد الأقصى انتهى مع تحويل القبلة إلى المسجد الحرام، أو يـرى أن تعظيم الصخرة يرجع إلى الأمويين، دعما لمركزهم السياسي، بل صرفا للناس عن شد الرحال إلى المسجد الحرام؛ وهذا يعني أن الهـدف من إفسـاد الـذاكرة هـو أن يـؤدي إلى اختلال علاقـة الفلسـطيني بماضـيه. 2.1.2. إفساد الثقة بالذات؛ يتجلى هـذا الإفسـاد الثـاني في جعـل الفلسـطيني يفقد ثقته بقدرته الذاتية على التغيير أو ييأس من إمكان دفـع المظـالم المرتكبـة في حقـه، مستسـلما لقـدره ومصـيره، أو يرتـاب في فائـدة المقاومة، أسلوبا لاسترداد حقوقه، حتى يكاد يرى فيها إرهابا، لا دفاعا ، وإتلافا، لا إحياء، وذلك لما استجد عنده من خصوص الاعتقاد بأن الواقع لا يرتفع وأن الالتزامـات مـع الإسـرائيليين لا تنخـرم ، فضـلا عن عمـوم الاعتقاد بأن العلاقات بالآخرين، شـعوبا كـانوا أو دولا، إنمـا هي علاقـات مصالح متبادلة يضبطها مبد آن هما: "مبدأ الواقعيـة السياسـة" و "مبـدأ العقلانية الإجرائية"؛ وهذا يعني أن الهدف من وراء هذا الإفسـاد الثـاني هو أن يؤدي إلى اختلال علاقة الفلسطيني بحاضره.

3.1.2. إفساد التوجه؛ يتمثل هذا الإفساد الثالث في جعـل الفلسـطيني يضطرب في اختياراته وأولوياته، فلا ينعقد قلبه على شـيء، ولا يحسـم في شيء؛ وكذا جعلـه يتقلب في تحديـد مطالبـه ومقاصـده، فلا يجـزم بشيء، ولا يتجه إلى شيء، فاقدا قبلته بـالمرة، كـأن يتنازعـه الانـدماج في المجتمع الإسرائيلي" و"العمـل على حفـظ خصوصـيته" أو يتنازعـه "خيار المفاوضة" و"خيار المقاومة" أو يتنازعه "مبدأ التعـايش السـلمي في ظل الدوليتين" و "مبدأ التحاكم إلى نظـام علمـاني في ظـل دولـة واحــدة"؛ من أجــل ذلــك، لم ينفــك الإســرائيليون يــدفعوه إلى مزيــد الاستغراق في المصالح الخاصة والعلاقات العامة والروابـط الخارجيـة، هذا الاستغراق الذي يحجب عنه، حتما، تصور الآفـاق وتـبين المشـاريع؛ وهذا يعني أن الهـدف من وراء هـذا الإفسـاد الثـالث هـو أن يـؤدي إلى اختلال علاقة الفلسطيني بمستقبله.

وتجـدر الإشـارة بهـذا الصـدد إلى أنـه مـتى اختلت علاقـة الفلسـطيني بالزمان في أبعاده الثلاثة الماضي والحاضـر والمسـتقبل، اختلت كـذلك علاقته بالمكان؛ ذلك أن الزمان، بموجب تعامـل أسـلافه الخـاص معـه، يُعتبر مقياسا من مقـاييس المكـان، بـل شـرطا من شـروطه؛ فـالوقت الذي يستغرقه الوصـول إلى الأرض المقدسـة هـو الـذي يحـدد عنـدهم مكانها، فهذه الأرض هي على مسيرة كذا شهور أو مسيرة كـذا أيـام أو مسيرة كذا ساعات؛ فالسير إلى أي ناحيـة من هـذه الأرض المباركـة لا يقــل فضــلا عن الإقامــة فيهــا أو المجــاورة بهــا؛ ومــا كــان ليفــوت الإســرائيليين، وهم الــذين أقنعــوا العــالم بــأحقيتهم في أرض ســكنها لسنوات معدودة بعض أجدادهم المزعومين قبل ثلاثة آلاف عام، إدراك أهمية الزمان، أسلوبا فعالا في انتزاع المكان؛ لـذلك، تـراهم يحرصـون على أن يحدثوا الاختلال في علاقة الفلسـطيني بالزمـان حرصـهم على إحداث الاختلال في علاقته بالمكان؛ فما إجـراءات النفي وتـوالي المنـع من دخــول مدينــة القــدس ومن الصـلاة في المسـجد الأقصـى لِمُـدَد مختلفة، عقابا، أو بحسب الأعمار، احترازا، وكذا تقسيم أوقـات العبـادة بينهم وبين الفلسـطينيين ومنـع الأذان في المـدن الفلسـطينية إلا بعض الأعمال الخبيئة المراد بها إضعاف تعلـق الفلسـطيني بالمكـان بطريـق إضعاف تعلقه بالزمان.

2.2. سلب الفطرة

إذا كان "قلب القيم" إفسادا للفطرة، فإن "سـلب الفطـرة" نهايـة في إفسادها؛ فاحتلال الفطرة الذي أسميناه بـ"الحلـول" هـو أوسـع وأظهـر في "ســلب الفطــرة" منــه في "قلب القيم"؛ إذ أن "قلب القيم " هــو فصل لبعض القيم عن الفطرة واستبدال أضدادها مكانها، بينمـا "سـلبُ الفطرة" هو اجتثاثهـا أو استئصـالها، بحيث يكـون "الحلـولي" إنسـانا بلا فطرة، قاطعا صلته بعالم الغيب الـذي خـرج منـه ، وعُـرف هـذا النـوع الكلي من الحلول، في الخطاب السياسي والقـانوني المتـداول، باسـم "التطـبيع " ؛ و " التطـبيع " الـذي يريـده الإسـرائيليون ينقسـم باعتبـار سـعته الجغرافيـة إلى ثلاثـة أنـواع: "التطـبيع الفلسـطيني" و"التطـبيع العربي" و"التطبيع الإسلامي" يُرتبون بعضها على بعض؛ فقد سعوا، في البداية، إلى التطبيع الإسلامي، ظنّا منهم أنه يفتح الطريـق للتطـبيع مـع العرب ولـو على جهـة السـر؛ وبعـد اتفاقيـات "كـامب ديفيـد" و "وادي عربة ، طمعوا في أن يكون التطبيع العربي الجزئي طريقا إلى التطـبيع الكلي معهم؛ ثم، بعد اتفاقيات "أوسـلو" ، اتخـذوا التطـبيع الفلسـطيني مطيـة لتحصـيل المزيـد من التطـبيع العلـني؛ والآن وقـد أصـاب العـالم

العربي ما أصابه من آفات التنازع والتقاتل والجهالة والعمالـة، يُركّـزون على التطبيع العربي العلني، باعتبـار الـتردي العـربي الحـالي فرصـة لا تفـوت لإملاء تصـورهم للتطـبيع العلـني على من لا يـزال من العـرب مترددا في الهرولـة إليهم، تمهيـدا لتصـفية القضـية الفلسـطينية بصـفة نهائية؛ ولا يهمنا التعرض لبنود هذا التطـبيع الـتي أضـحى يعـرف فداحـة أخطارها القاصي والداني بقدر ما يهمنا الوقـوف عنـد بعض الخصـائص الحلولية التي يتصـف بهـا المطبّعـون والـتي تجعـل التطـبيع عبـارة عن تضييع ما لا يُضيع من مزايـا الـذات الإنسـانية؛ ولنـذكر من أشـكال هـذا التضييع أربعة، وهي:

1.2.2. تضييع الطبيعة؛ لقـد أريـد بــ التطـبيع مـع الكيـان الإسـرائيلي"، بطريق دلالـة المطابقـة، الارتبـاط بهـذا الكيـان بمـا يجعـل وجـوده في فلسطين وجودا مشروعا؛ كما أريد به، بطريـق دلالـة الالـتزام أن هـذه المشروعية توجب لهذا الكيان أكـثر ممـا يجب لغـيره من دول الجـوار، بحكم تفوقـه في مختلـف مجـالات الحضـارة المعاصـرة؛ لكن الارتبـاط الذي يكون بهذا الوصف لا تصـح تسـميته بــ"التطـبيع"، وبيـان ذلـك من الوجوه الآتية:

أ. أن لفظ "التطبيع" تفعيل من "الطبع" أو "الطبيعة"؛ و"الطبيعــة" هي "الجبلة"، أي الخُلق الذي يتصف به الإنسـان من أصـل الخلقـة)[6]، بينمـا الارتباط بالكيان الإسـرائيلي يتعلـق، أساسـا، بإضـفاء المشـروعية على كيان غير مشروع، فأدل اسم عليه هو "الشرعنة" (أو قـل"التشـريع")؛ والشرعنة خلاف التطبيع، فقد تُمنح الشرعية لما ليس بطبيعي، كما أن "الطبعية" قد توجد فيما ليس بشرعي، لأن الشرع عبـارة عن "وضـع " منشؤه الأمر التكليفي، في حين أن الطبيعة عبارة عن "خلقة" منشؤها الأمر التكويني.

ب. أن مفهوم "التطبيع " يقوم على افتراض مسبق، وهــو أن الارتبـاط بالكيان الإسرائيلي كان طبيعيـا قبـل الآن؛ لكنـه لم يبـق كـذلك، فيتعيّن ردّه إلى سـابق عهـده الطـبيعي؛ والحـال أن هـذا الافـتراض المسـبق باطل؛ وإذا بطل هذا الافتراض صار التطـبيع في حكم مـا لا معـنى لـه،

---

[6] (6) إن مفهـوم «الطبيعـة»، بمـوجب دلالتهـا على الخلقـة، أقـرب إلى معـنى الفطـرة»، إذ الفطرة هيئة جبل عليها الإنسان كما جبل على الصفة الطبيعية؛ فـإذا قيـل: «التطـبيع»، فكأنهـا قيل «التفطير»، أي إضفاء الصـفة الفطريـة على الشـيء؛ وهـذا ينـاقض مـا قررنـاه من كـون التطبيع هو احتلال للفطرة، أي حلول، وأن الحلول الكلي إنما هو اجتثاث للفطرة، لا تثـبيت لهـا كما يكون التطبيع تثبيتا للطبيعة.

بحيث لا يقبل الحكم عليه، لا صدقا ولا كـذبا، إذ كيـف يُطبّـع مـع مـا لم يسبق له أن كان طبيعيا.

ج. أن التطبيع لا يصح إطلاقه على الارتبـاط بالكيـان الإسـرائيلي إلا في معنى يضاد المراد منه؛ وصيغة "التفعيل"، في اللسـان العـربي، تُمكننـا من ذلك، إذ أنها من صيغ الأضداد؛ فمثلا، لفظ "التمـريض"، فـإذا قيـل : "مرَّض فلانا"، فقد يراد أنه "صيره مريضا"، وقد يراد ضد هـذا المعـنى، أي أزال" عنه مرضه"؛ وإذا كان الأمر كذلك، فقد جـاز لنـا أن نسـتعمل مفهوم "التطبيع" في معنى إزالة الوصف الطبيعي عن الارتباط بالكيان الإسرائيلي، حتى ولو أقيمت علاقـات معـه في السـر أو العلن؛ فيصـير قولنا: "الدول العربية المطبعـة" مرادفـا لقولنـا: "الـدول العربيـة الـتي ارتبطت بالكيان الإسرائيلي بعلاقات غير طبيعية".

مما أتينا على ذكره، يلزم أن المطبّع ينقلب عليه مقصوده، إذ بقـدر مـا يريد أن يدخل في علاقات طبيعية مع الكيان الإسرائيلي، فإنـه لا يفعـل إلا أن ينزع عنهـا صـفتها الطبيعيـة، نظـرا لأن الفطـرة الـتي تُمكّنـه من إضفاء هذه الصفة بحقها على الموصوف، صارت، بحكم

وضعه الحلولي - أي بحكم احتلال هذا الكيان لفطرته – مفقودة عنده.

2.2.2. تضييع الروح؛ لما كان الأصل في التطبيع هو الحلـول الكلي، أي احتلال الفطـرة، فقـد يظن الظـان أن هـذا الحلـول مبعث حيـاة للـروح التي تحمل هذه الفطرة، بحجة أن الأصل في "الحلـول" هـو أن المبـدأ الحال يكون أسمى من المحل الذي يحل فيه، ممتزجا به امتزاجـا يبعث فيه القوة التي لم تكن فيه؛ لكن هيهات أن يكون هذا وضع المطبع مــع الحلول الإسرائيلي، وتوضيح ذلك من الوجوه الآتية:

أ. يقوم الحلول الإسرائيلي في اقتلاع فطرة المحتل من جـذورها؛ وقـد ذكرنا أن الفطرة عبارة عن جوهر الروح، بحيث توجـد الـروح بوجـوده؛ فـإذا انـتزع الجـوهر، انـتزعت الـروح فيلـزم أن الحلـول الإسـرائيلي، باجتثاثـه لفطـرة المحتـل، إنمـا يجتث روحـه، واجتثـاث الـروح شـر من اجتثاث البدن؛ وعلى هذا، يكون المطبع قد آثر مـوت روحـه على مـوت بدنه.

ب. ليست الإرادة الإسرائيلية[7] التي تقصـد أن تَحـلَّ في فطـرة المحتـل أشرف من هذه الفطرة؛ وبيان ذلك أن الفطرة تتضمن المعاني والقيم

---

[7] المقصـود هـو الإرادة المؤسسـة على الفكرانيـة الصـهيونية والثقافـة اليهوديـة والسياسـة الإسرائيلية.

التي فطر عليها الإنسان، مادام أنه قد خُلق في أحسن تقويم، بينما الأصل في الإرادة الإسرائيلية الأخذ بالقيم المضادة لهذه القيم الفطرية؛ فينتج أن الإرادة الإسرائيلية لن ترقى أبدا بالذات التي تحل فيها، وإنما تتردى بها إلى الدرك الأسفل؛ وعلى هذا، يكون المطبع قد استبدل الإرادة الدنيا بفطرته التي هي أعلى.

ج. بنيت الإرادة الإسرائيلية، أصلا، على حشد من الأساطير والأباطيل التي لا قبل للعقل بها، بينما الفطرة منشؤها عالم الحقائق الملكوتية التي لا يملك العقل إلا أن ينبهر بجلالها، مقرا بعجزه عن إدراكها؛ فإذا تطاولت الإرادة الإسرائيلية على الفطرة، مقتحمة رحابها، لم يكن بد من أن تحجب عن صاحبها، بأساطيرها الباطلة، هذه الحقائق العظمى؛ ومن ثم، يكون المطبع قد استبدل فاسد الأوهام بصحيح الحقائق.

د. يملك الإنسان القدرة على أن يولد من القيم الأصلية للفطرة قيما أخرى يُكوّن مجموعها ما قد نسميه بـ "الحكمة"، بحيث ينقسم زاد الإنسان من القيم إلى قسمين: "قيم الفطرة" و"قيم الحكمة"؛ وإذا صح هذا صح معه أيضا أن الفئات الثلاث التي تتعرض للتطبيع – وهي: "الفلسطينيون" و"العرب" و"المسلمون" - على الرغم من اتحاد فطرتها، يمكن لكل واحدة منها أن تُفرّع على هذه الفطرة الواحدة قيما مختلفة تخصها، بحيث تكون لكل فئة حكمتها الخاصة بها؛ وإذا كان الأمر كذلك، فقد لزم أن يؤدي حلول الإرادة الإسرائيلية في أفراد هذه الفئات الثلاث، لا إلى انتزاع فطرتها فحسب، بل أيضا إلى محو حكمة كل فئة منها، لأن الإرادة الإسرائيلية تحتل فضاءها الروحي بكليته؛ من هنا، يكون المطبع قد قضى على نفسه بموتين شنيعين: "موت الفطرة" و"موت الحكمة".

هـ. قد يقال بأن الإرادة الإسرائيلية، هي الأخرى، تتأسس على "المعرفة الإسرائيلية" التي تنزل منزلة "الحكمة" التي اختص بها الإسرائيليون، وهي مجموعة القيم العلمية والتقنية التي اكتسبوها، وأن الفلسطيني أو العربي أو المسلم يشعر إزاءها بضآلة علمه وضحالة فكره، فيكون حريا به أن يتقبل حلول الإرادة الإسرائيلية في فطرته، لكي يحصل هذه القيم المفقودة عنده؛ الجواب أن الإسرائيلي، بحكم منطق الاحتلال، يحرص على أن يمنع المحتل من الوصول إلى هذه المعرفة النافعة، خوفا من أن يطاوله، يوما، ويقوى على تحرير نفسه، بل إنه يعرض هذا المنع نفسه، دهاءً ومكرا، في صورة معرفة أخرى تجعل المحتل ينخدع بها، منصرفا عن طلب المعرفة التي مُنعت عنه ؛

وحسبنا شاهدا على ذلك المعرفة التي صيغت بها اتفاقيات "أوسلو" والتي انخدعت بها منظمة التحرير الفلسطيني، فهل في الانخداع السياسي أكبر من أن يُتَّفق على قشور الصراع، ويؤجل اللب كالقدس والحدود إلى مفاوضات لا يحدها زمان ولا يُحدد لها مكان! وعلى هذا، يكون المطبع قد أخذ بالمعرفة التي تحجبه عن المعرفة.

وخلاصة القول إن الحلولي المطبّع يستبدل الذي هو شر بالذي هو خير، مضيعا فطرته؛ إذ يؤثر موت فطرته على موت بدنه، بل يجمع إلى موت فطرته موت حكمته؛ كما أنه يؤثر الاستغراق في الوهم الأسطوري على أن يرقب الحقيقة الروحية، بل إنه يتعلق بالمعرفة الإسرائيلية التي تضره، ولا تنفعه.

3.2.2. تضييع القداسة؛ لقد أخذ "القدوس"، سبحانه وتعالى، في عالم مقدَّس، من الإنسان، وهو في حالته القدسية، ميثاق الائتمان على أمور مقدَّسة؛ فـ"المقدس" أول مكوّن فطري قاعدي ائتمن عليه الإنسان؛ ومعلوم أن الحلولي يتعاطى تطبيع نفسه على الاعتقاد بأن الأرض المقدسة ليست بالقداسة المظنونة، ولا الحرم القدسي، ولا المسجد الأقصى بهذه القداسة، فيستوي عنده احتلال الإسرائيلي لهذه الأمكنة واحتلاله لغيرها، بل يستوي تسليمها الطوعي له وتسليم سواها، رافعا القدسية عن هذه الأمكنة؛ ولما كان "المقدس" هو كل مطهر من الدنس، أيا كان، وكان أولى الدنس بالتطهير هو الشرك، وقع الحلولي المطبع في تدنيس المكان الذي طُهر من الشرك، بل تبدل، بفطرة التقديس، نزعة التدنيس. ومعلوم أن "المنزل" (أي التنزيل) صورة أخرى للمقدَّس كما أن "الأرض" صورة من صوره؛ بيد أن المطبع يهون عليه أن يعبث بالكتاب المنزَّل على قدر ما يطلبه المحتل الإسرائيلي؛ فيتأوَّل الآيات القرآنية على غير وجوهها، ليا لنصوصها، ويشتغل بحذف السُّور التي تقص أخبار اليهود، إن نكثا للعهود، أو مخالفة للمواثيق، أو عبادة للأوثان، أو قتلا للأنبياء، مع أن التصديق بهذه الأخبار المحذوفة شرط في التحقق بالإيمان؛ بل يتجرأ على ما لم يجرؤ عليه أحد، فيصرف بعض أركان الدين كركن الجهاد، متعللا بأنه مجرد إرهاب، حتى في صورته الدفاعية، إذ يُصرُّ على أن الكيان الإسرائيلي يجنح إلى السلم، معتبرا دفع الاحتلال إنما هو اعتداء عليه؛ وحيث إن "المنزَّل" هو أساس الاتصال بين العوالم، ظاهرها وباطنها، فإن عبث المطبع به يجعل شعوره بهذه الصلة يختل أيها اختلال؛ وإذا اختل شعوره، اختل إدراكه، فيحسب أنه يُحسن حيث يسيء، ويهتدي حيث يضلُّ؛ وهكذا،

فإن تطاول المطبع على حرمة المنزل يذهب بآخر بقية من منزوع فطرته، ألا وهو عقله.

ولا يكتفي المطبع بأن يأتي ما أتى تدنيسا للمقدَّس، وتحريفا للمنزل، بل يشتغل بترويض نفسه على مزيد التدنيس والتحريف كاسرا آخر الموانع النفسية، ومتجاوزا كل الاعتبارات المضادة كيما يُحصل الاستعدادات النفسية الضرورية، ويصير له التطبيع بمنزلة "الطبع" الذي لا انفكاك عنه، إذ يكون قد استدخل في نفسه، ضوابطه وشرائطه على تمامها؛ وعندها، فكما هان عليه أن يرفع القدسية عن "بيت المقدس"، فكذلك. عليه أن يرفعها عن "بيت الكعبة"، متى امتدت أطماع المحتل الإسرائيلي إلى ما حوله من الأرض المباركة، حرصا منه على استرضائه وكما أنه هان عليه أن يُسقط بعض الكتاب المنزل، فكذلك يهون عليه، متى أبدى هذا المحتل أدنى سخط على نظام حكمه، أو تشكك هو في استمرار مساندته له، أن يُسقط الكتاب كلَّه، طمعا في استعادة ثقته؛ فما دنّس ما دنّس، ولا حرَّف ما حرَّف إلا من أجل أن يضمن دوام سلطته ولو صورة أو رمزا، لأن حبه للتملك لا يقل عن حب الإسرائيلي، فكلاهما ينازع الإله في مالكيته، وإلا ما كانت لتحلَّ إرادة أحدهما في الآخر؛ وهكذا، يتضح أن المطبع لا يتوب من تطبيعه، بل، على العكس، يرسخه، حتى يصير له سجية.

4.2.2. تضييع الحياء؛ لا يخفى أن الحياء خُلق رفيع يبعث على اجتناب المنكرات

وعلى رأسها إيذاء الآخرين؛ فاستحق أن ينزل مرتبة الخلق الأول الذي تتفرع عليه باقي الأخلاق، بل أن ينزل منها منزلة الشرط من المشروط، فلا خُلق إلا وفيه قدر من الحياء، قل أو كثر؛ والحال أن الأصل في وجود التطبيع هو فقدان الحياء؛ فلولا وقاحة المطبع الحلولي ما كان ليتعاطى التطبيع مع عدو مبين للفطرة؛ وتتجلى هذه الوقاحة في المظاهر الآتية: أ. النسيان الكلي للنظر الإلهي؛ معروف أن المرء لا يشعر بالحياء، إلا لأنه، عند إقدامه على فعل من الأفعال، يجد نفسه متصوّرا لنظٍّر غير نظره مراقب له، نظر قادر على الحكم عليه، فيحجم عن هذا الفعل متى قدر أن هذا النظر يحكم على فعله سَلْبا؛ وقد يكون هذا النظر الثاني نظرَ إنسان مِثْله، على أن هذا النظر لا يكون له من الأثر إلا بالقدر الذي يُنبه على وجود النظر الإلهي، بحيث يكون النظر الإلهي هو الأصل في وجود الحياء؛ فوجود الاستحياء من

النظر البشري إنما هو متفرع على الاستحياء من النظر الإلهي، أقـر بـه من أقر وأنكره من أنكر.

أمـا حـال المطبـع مـع الحيـاء من النظـر الإلهي، فسـوؤه ليس طبقـة واحدة، وإنمـا طبقـات بعضـها أسـوأ من بعض أولاهـا، أن المطبّـع ينكـر وجود تنبيه النظـر البشـري على وجـود النظـر الإلهي، بحيث يصـفو لـه التوقح على النظر البشري، فيأتي منه ما اسـتطاع؛ والثانيـة، أنـه يعمى أو يتعامى عن وجود النظـر الإلهي، فلا يـتردد في أن يفعـل مـا يُسـخط ربّه؛ والثالثـة، أنـه يسـعى إلى الحيلولـة دون حيـاء الآخـرين من النظـر الإلهي ، إذ لا يرضى عنهم، حتى يكونوا مثله، وقاحة والرابعة، أنـه يلجـأ إلى أخبث الوسـائل لكي يصـرف عن الحيـاء من النظـر الإلهي، فئـتين خاصتين من النـاس: إحـداهما الفئـة الـتي اختصـت بتعلـق قلوبهـا بهـذا النظر لإقامتها في الأرض المقدسـة، وهي الـتي خصـها الإلـه بنظـر من عنده؛ والثانية، الفئة التي تشاركها قوة هـذا التعلـق، حـتى ولـو لم تكن مقيمـة بهـذه الأرض المباركـة؛ فيتـبين أن المطبـع لا يكتفي بـأن يـنزع الحياء من نفسه، بل يسعى إلى أن ينزعـه من غـيره؛ فوقاحتـه ليسـت من جنس الوقاحة القاصرة، وإنما هي وقاحة متعدية صريحة.

ب. فقدان التمييز الأخلاقي؛ معلـوم أن الشـعور الأخلاقي الـذي يُعـرف باسـم "الضـمير" أو "الواعـظ" أو "الـوازع " يُمكّن الإنسـان من تمـيز الخير من الشر أو تمييز الحق من الباطل؛ والظاهر أن المطبع فقد هذا السلطان الأخلاقي، بموجب حلول الإرادة الإسرائيلية فيه، إذ اضـمحلت فطرته، فطفق يسـتبدل، بقيمـه الأصـلية، قيمـا مضـادة لا يملـك الحكم عليها، ناهيك عن التفريع عليها أو ترتيبها بحسـب آثارهـا، كـأن يسـتبدل بالمعاداة الموالاة وبالمقـدَّس المـدنس وبـالحق القـوة؛ وبـذلك، تفسـد ملكة الحكم لديه أيما فساد، فلا يقدر، من تلقاء نفسـه، أن يُفـرّق قبـل الفعل بين ما يجب عليه فعله من حيث هو، في ذاته، خير وبين ما يجب عليه تركه من حيث هو في ذاته، شر؛ ولا أن يفرق، بعد الفعل، بين مـا يستحق المدح من حيث هو، في جوهره، مصلحة وبين ما يستحق الـذم من حيث هو، في ذاته، مفسدة؛ إذ حسبه أن يفعل ما تـأمره بـه الإرادة الإسرائيلية، والخير كله فيما فعـل، لأن هـذا المفعـول، - ظنـه يسـتحق المدح ولو كان في ذاته، شرا؛ وحسبه أيضا أن يترك ما تنهاه عنـه هـذه الإرادة والشر كله فيما ترك، لأن هذا المـتروك. حسـب ظنـه، يسـتحق الذم ولو حسب كان، في ذاته، خيرا.

لذلك، تجد الحاكم المطبع لا يبدي أي اسـتعداد لأن يتـوب من خطيئتـه، ولا أن يندم على أذيتـه؛ وحيث إن حب التملـك أو حب التسـلط يُعميـه، تأخذه العزة بما اقترف؛ فتنقلب عنده ضـرورة التوبـة إلى إصـرار على الخطيئة، وضرورة الندم إلى الاغترار بها؛ وأنى له أن يعتز بمـا اقـترف! إذ أن قيمــه هي أضــداد للقيم الفطريــة، فعزتــه إنمــا هي في مــيزان الفطرة، ذلة؛ فالمطبع لا يكون إلا ذليلا مذلولا؛ وعلامة ذلك أنه لا ينفـك يتزلّف لمن أذله، حتى يبلـغ حـد إعلان مبايعتـه؛ وهكـذا، فلمـا فقـد هـذا المطبع فرقان الضمير الذي يرفعه، كان لا بد أن يتضع لمن بذله

ج. ممارسة النفاق؛ معلوم أن النفاق هـو إظهـار خلاف مـا في البـاطن لغرض من الأغراض؛ وقد يقع فيه من يقع عن مجاملة أو مخاتلـة، وقـد يأتيه في وقت أو وضـع، ولا يأتيـه في وقت أو وضـع آخـر؛ لكن المطبـع يتميز بكونه يمارس النفاق على أوسـع نطـاق؛ ذلـك أن ذاتـه المسـتلبة تكون بين حالتين كلتيهما تدعوه إلى النفاق:

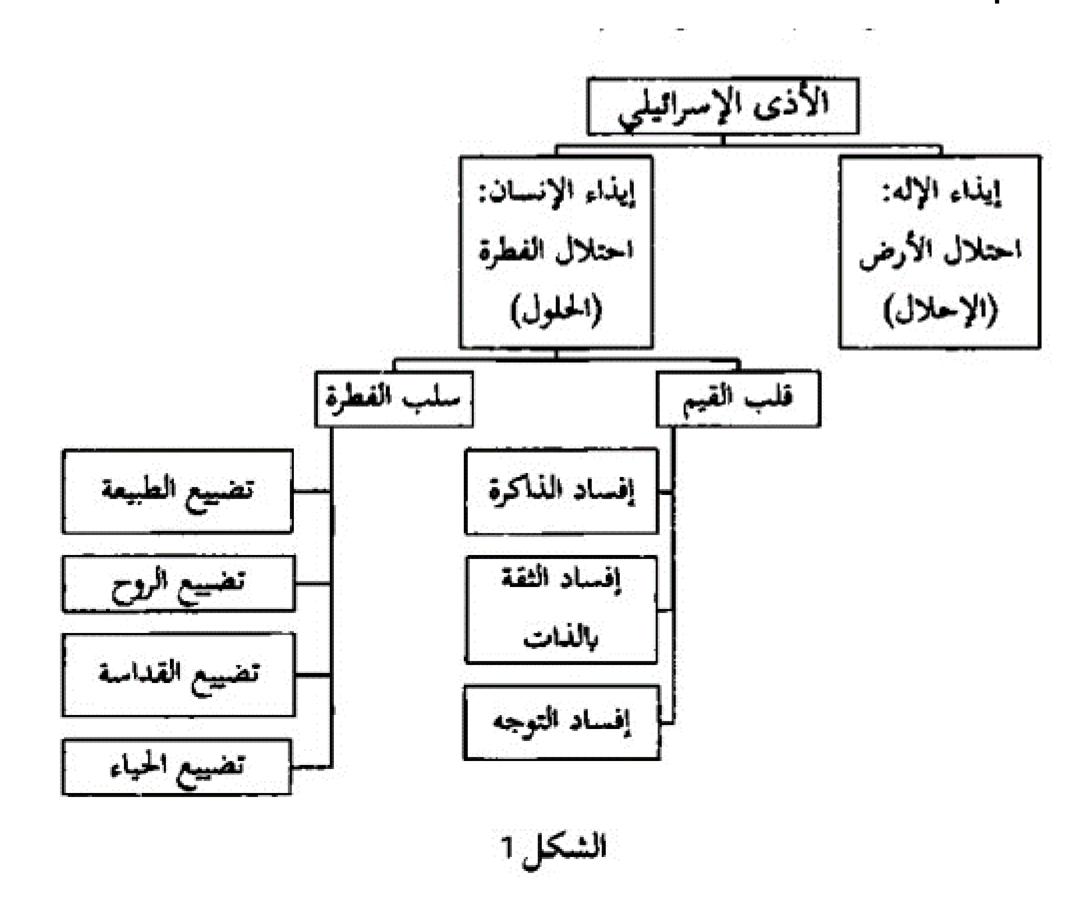
أولاهما، أنها تضاد الذوات التي حافظت على فطرتها في أمته، فيضطر إلى إخفاء استلابه وإظهار عكسه، أي أصالته؛ ولا يرجـع هـذا الاضـطرار إلى كونه يتقي أن يصـدم هـذه الـذوات ذات الفطـرة، لأنـه لـو علم أن الصدمة تجعلها تطبّع، لكشف عن استلابه، وإنما يرجع هــذا التخفي إلى كونه يروم أن يسلب الـذوات من بـني جلدتـه أو عقيدتـه فطرتهـا على التــدريج وفي غفلــة من أمرهــا، موهمــا إياهــا بأنــه يتعامــل معهــا على مقتضى هذه الفطرة؛ فنفاق المطبع لأهل الفطــرة اسـتدراج خفي لهم ومكر متين بهم.

والحالة الثانية، أن ذاته، وإن أضحت من جنس الذات الإسرائيلية، فإنهـا لا ترقى إلى رتبتها؛ وإيقانه بهذه الدونية يضطره إلى إخفائها كمـا يُخفي استلاب ذاته على أهل الفطرة؛ وليس ذاك لأنـه يعتقـد أن الإسـرائيليين ينخدعون بهذا الإخفاء، فيحسبون ذاته على قدر ذواتهم من جهة تحققها بالإرادة الإسرائيلية، وإنما لأنه يطمع في أن يُشفقوا عليه لما يلاقيه من عناء في التظاهر بما ليس من قدره ولو أنه أمسى من طبعه، مستعذبا تكريسهم لدونيته؛ فنفاق المطبّـع لأهـل إسـرائيل اسـتعطاف خفي لهم وتقرب مشين إليهم.

ومع هذا كله، يبقى أن البـاعث الـدفين على النفـاق عنـد المطبّـع ليس القــدرة على التضـليل، وصـولا إلى تطـبيع عقـول بـني جلدتـه أو تلـيين قلوب الإسرائيليين، وإنما الخوف من الناس، عجزا عن المواجهـة، هـذا الخوف الذي ولّده فيه عدم خوفه من رب الناس؛ إذ يخـاف أن يضـروه

بما لا يخاف أن يضره به ربه، إن هو أظهر ما يُبطنه؛ فـالجبن هـو الـذي يدعوه إلى أن يكون ذا وجهين بين الناس، لاقيا كل فئة بمـا تحب، وهـو في كلا الحـالين كـاذب، فيلقى أهـل الفطـرة بظـاهر الفطـرة، مبطنـا خلافها، كمـا يلقى أهـل إسـرائيل بظـاهر الخضـوع للإرادة الإسـرائيلية، مبطنا التقصير فيه[8]؛ أو قل، بإيجاز، إن عريض نفاق المطبع إنما هو من وجود شنيع جبنه.

وجملة القـول في التطـبيع هـو أنـه عبـارة عن تضـييع، فـالمطبّع يضـيّع الطبيعـة بمعـنى "التحقـق بالجبلـة"، ويضـيع الـروح بمعـنى "التحقـق بالفطرة"، ويُضيع القداسة بمعنى التحقق بالظهر، ويُضيع الحياء بمعـنى "التحقق بالخُلق الأول"؛ ولا يقنع بـأن يضـيع هـذه القيم في نفسـه، بـل يتطلع إلى أن يجعل أمة العرب وأمة المسلمين معا تضيّعانها، فتضـييعه ليس قاصرا على نفسه، وإنمـا متعـديا إلى غـيره؛ وعليـه فـإن المطبّـع ذات ضـائعة ومضـيعة، وتضـييعها ذو وجهين: "تضـييع للقيم" و"تضـييع للامم".



الشكل 1

[8] الحكم في الحالين للباطن، لا للظاهر.

هــا نحن قــد فرغنــا من الجــواب عن الســؤالين الائتمــانيين اللــذين وضـعناهما بصـدد الاحتلال الإسـرائيلي لفلسـطين وهمـا: سـؤال "إيـذاء الاحتلال للإله" وسؤال "إيذاء الاحتلال للإنسان"؛ وقد اتضـح أن "إيـذاء" "الإلــه المتمثــل في "الإحلال"، أي "احتلال الأرض" يقــوم في منازعــة الإله صفة "المالك الحق"؛ كما اتضح أن "إيـذاء الإنسـان" المتمثـل في "الحلـول"، أي "احتلال الفطـرة"، على رتبـتين: "قلب القيم" و "سـلب الفطرة[9] ؛ يتعين الآن أن نباشر الجواب عن السـؤال الائتمـاني الثـالث، وهو كيف ندفع الإيذاءين الإسرائيليين: "إيـذاء الإلـه" و"إيـذاء الإنسـان؟ واضـح أن هـذا السـؤال مـردود إلى السـؤال الآتي، وهـو: كيـف نـدفع الاحتلالين الإسرائيليين: "الإحلال بالأرض" و"الحلول بالفطرة"؟

3. ماهية المرابطة المقدسية

لما كان الإحلال احتلالا لأرض مقدَّسـة، فقـد تعـاطى سـلب "القداسـة" عنهـا، أي تعـاطى تدنيسـها؛ فيلـزم أن دفـع هـذا الإحلال يـوجب تطهـير الأرض المحتلة من "الدنس"، أي "تجديد قداسـة الأرض"؛ ثم لمـا كـان الحلول احتلالا لفطرة أصـيلة، فقـد تعـاطى سـلب "الأصـالة" عن هـذه الفطرة، أي تعاطى تزييفها؛ فيلزم أن دفع هـذا الحلـول يـوجب تطهـير الفطرة المحتلة من "الزيف"، أي "تجديد أصالة الفطرة"[10]

وإذ تقرر هذا، ظهر أن القيـام بهـذا التطهـير المـزدوج : "تطهـير الأرض من الـدنس" و"تطهـير الفطـرة من الزيـف"، أو القيـام بهـذا التجديـد المزدوج: "تجديد قداسة الأرض" و"تجديد أصالة الفطرة" لا تقدر عليــه إلا المقاومة التي تأخذ بالمبدإ الائتماني السابق الذي يفرق بين الصورة والروح، فتفرق بين "احتلال الأرض" الذي هو صورة "الإحلال" وتـدنيس الأرض" الذي هو روحه، كما تفرّق بين احتلال الفطرة" الذي هو صــورة "الحلول" و"تزييف الفطرة" الذي هو روحـه؛ وبنـاء على هـذا التفريـق، تقرر بأنه لا نهاية للاحتلال الإسرائيلي إلا بنهـايتين: "نهايـة دنَس الأرض" و"نهاية زيف الفطرة"، (أي بعودة "قداسة الأرض" و"أصالة الفطرة").

ونطلق على المقاومة القائمة على هذا المبدإ الائتماني اسم "المرابطة المقدسية"؛ فمعلوم أن "المرابطة" هي، بوجه عام، ملازمة ثغر يُخشى

---

[9] مع العلم بأن سلب الفطرة يلزم منه قلب القيم، فكل سـلب للفطـرة قلب للقيم، لكن ليس كل قلب للقيم سلبا للفطرة.

[10] الشاهد على وجود الصلة بين قداسة الأرض وأصالة الفطرة ما ورد في إحدى الروايـات من أن الرسـول، صـلى " اللـه عليـه وسـلم، لمـا أم الصـلاة بالأنبيـاء عليهم السـلام في المسـجد الأقصى، آخـذا البيعـة والوارثـة منهم، متهيئـا للعـروج إلى السـماء، أتـاه جبريـل عليـه السـلام، بشرابين، فاختار اللبن؛ فقال له جبريل: «أصبت الفطرة».

هجوم العدو منه، كي لا يباغت الآمنين، وحتى إذا هجم، تتم مقاومته بكل قوة؛ وحيث إن العدو الإسرائيلي دنس الأرض وزيف الفطرة، نضع للمرابطة المقدسية التعريف الآتي:

المرابطة المقدسية هي | المقاومة التي تلازم ثغور الأرض المقدسة لتتصدى لتدنيسها، وتعيد إليها قداستها، وتلازم ثغور الفطرة المؤصلة لتتصدى لتزييفها وتعيد إليها أصالتها.

تلزم من هذا التعريف النتيجة الائتمانية التالية، وهي:

أن المرابطة المقدسية ليست فضاء ماديا بقدر ما هي فضاء معنوي.

وبيان ذلك من الوجوه الآتية:

أولها، أن "قداسة الأرض" و "أصالة الفطرة" اللتين تتولى هذه المرابطة تجديدهما هما معنيان روحيان صريحان؛ وحضورهما في الوجدان أقوى من حضور المدركات الحسية للعيان؛ فـ"الإحلال" الذي يسيئ إلى قداسة الأرض و"الحلول" الذي يسيء إلى أصالة الفطرة مدركان حسيان، غير أنه لولا المعنيان الروحيان: "القداسة" و"الأصالة"، ما رابط مرابط، مقاوما هاتين الظاهرتين الاحتلاليتين، حتى كأن إدراكهما منوط بإدراك هذين المعنيين الروحيين.

والوجه الثاني، أنها تمتح من مصادر روحية متعددة:

أ. عظمة الميراث الروحي الذي خلفته الرسل والأنبياء والصالحون عبر القرون والذي لا يزال يغشى أكناف بيت المقدس إلى يوم الدين.

ب. قوة الرباط بوجه عام، و "قوة رباط البراق" الذي يدل على "الوثاق" بوجه خاص؛ إذ قوة هذا الرباط تأتي من الذي تولى إبرامه، وهو الملك الشديد القوة، أي جبريل، عليه السلام، إذ هو الذي أحكم ربط البراق بالحائط؛ وليس هذا فقط، بل كانت سرعة أن "المرابطة" هي، بوجه عام، ملازمة ثغر يُخشى هجوم العدو منه، كي لا يباغت الآمنين، وحتى إذا هجم، تتم مقاومته بكل قوة؛ وحيث إن العدو الإسرائيلي دنس الأرض وزيف الفطرة، نضع للمرابطة المقدسية التعريف الآتي:

المرابطة المقدسية هي | المقاومة التي تلازم ثغور الأرض المقدسة لتتصدى لتدنيسها، وتعيد إليها قداستها، وتلازم ثغور الفطرة المؤصلة

لتتصدى لتزييفها وتعيد إليها أصالتها[11]. تلزم من هذا التعريف النتيجة الائتمانية التالية، وهي:

أن المرابطة المقدسية ليست فضاء ماديا بقدر ما هي فضاء معنوي.

وبيان ذلك من الوجوه الآتية:

أولها، أن "قداسة الأرض" و "أصالة الفطرة" اللتين تتولى هذه المرابطة تجديدهما هما معنيان روحيان صريحان؛ وحضورهما في الوجدان أقوى من حضور المدركات الحسية للعيان؛ فـ"الإحلال" الذي يسيئ إلى قداسة الأرض و"الحلول" الذي يسيء إلى أصالة الفطرة مدركان حسيان، غير أنه لولا المعنيان الروحيان: "القداسة" و"الأصالة"، ما رابط مرابط، مقاوما هاتين الظاهرتين الاحتلاليتين، حتى كأن إدراكهما منوط بإدراك هذين المعنيين الروحيين.

والوجه الثاني، أنها تمتح من مصادر روحية متعددة:

أ. عظمة الميراث الروحي الذي خلفته الرسل والأنبياء والصالحون عبر القرون والذي لا يزال يغشى أكناف بيت المقدس إلى يوم الدين.

ب. قوة الرباط بوجه عام، و "قوة رباط البراق" الذي يدل على "الوثاق" بوجه خاص؛ إذ قوة هذا الرباط تأتي من الذي تولى إبرامه، وهو الملك الشديد القوة، أي جبريل، عليه السلام، إذ هو الذي أحكم ربط البراق بالحائط؛ وليس هذا فقط، بل كانت سرعة البراق سرعة نور عينه، يضع خطوه عند أقصى بصره[12]؛ وبهذا، تكون المرابطة المقدسية وثاقا يجمع بين قوة جبريل، إحكاما، وسرعة البراق، تأثيرا.

ج جلال السجود؛ إذ أن الرسول ، وهو يُسرى به إلى المسجد الأقصى من المسجد الحرام، توقف مرات للصلاة وأم بالأنبياء والرسل في هذا المسجد، وعرج منه إلى السماء لتلقي الصلوات الخمس المفروضة، وحيا مباشرا، كل صلاة منها تعدل صلوات عشر، وسَمَّى انتظار الصلاة بعد الصلاة رباطا[13]؛ ولما كان في السجود من القرب إلى الله ما ليس

---

[11] ثغور الفطرة هي كل مجالات التراث التي قد يهجم منها العدو

[12] قد نجد في رباط الصلاة ورباط البراق إشارة إلى أن الرسول هو المرابط المقدسي الأول الذي لا ينقطع رباطه إلى يوم الدين، متمثلا في الطائفة المنصورة المرابطة إلى أن يأتي ذلك اليوم، فرباطها الديمومي إنما هو قبس من رباطه السرمدي، عليه الصلاة والسلام؛ تأمل الحديث الشريف: لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء [أي من أذى، حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك. قيل: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس»، مسند الإمام أحمد.

[13] تدبر الحديث الشريف: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار

في غـيره من أعمـال الصـلاة، وكـان منـه "المسـجد" الـذي لا بيت من البيوت أقرب منه إليـه سـبحانه وتعـالى، كـانت المرابطـة المقدسـية لا أدوم منهـا على طلب هـذا القــرب الإلهي ؛ ؛ لــذلك، بــاتت المرابطــة المقدسية حالة سـجودية تلازم المرابـط في كـل أفعالـه وأوضـاعه، أو، بإيجاز، هي دوام شعور المرابط بالقرب في كل تصرفاته.

د. جمال الشهود؛ فقد أشهد الرسول صلى الله عليه وسلم في إسرائه ومعراجه من المشاهد الكونية والملكوتية ما لم يشهده غيره من البشر ، فالإسراء والمعراج صفتان شهوديتان بحق؛ ولما كان في "الشهود" أو المشــاهدة أو "الرؤيــة" من الإدراكــات مــا ليس في غــيره من تمــام التحقق مما وقع وبما وقع، كانت المرابطة المقدسية لا أشد منها طلبــا للتحقق من الوقائع وبها؛ لذلك، باتت المرابطة المقدسية حالة شهودية تلازم المرابط في كل أعماله، بدءا بحراسته لثغره وانتهـاء بوقوفـه بين يدي ربـه أو، بعبـارة أو جـز، هي دوام رؤيـة المرابـط للـواجب في كـل أفعاله. والوجه الثالث أن المرابطة المقدسـية، أصـلا، مقاومـة بـالروح؛ وما مقاومة المرابـط بجسـمه إلا تبـع لهـا؛ فلمـا ملأت معـاني المـيراث الروحي والرباط القوي والسجود والشهود وغيرها روح المرابط، كـانت طاقةً لهذه الروح لا تعدلها طاقـة قـدرة على تحريـك جسـمه، ومبـدأ لا يعدله مبدأ، قدرةً على توجيه حركته، بل قـد يتعـدى أثـر روحـه جسـمه إلى جسم غيره، انجذابا إليه، حتى كأنها روحـه، بـل إن هـذه الـروح قـد تقاوم بقوة، حتى يُظن أنها لا تقـوم بجسـمه لضـعف بنيتـه؛ وقـد تقـاوم حيث لا يقاوم جسمه، حتى كـأن الجسـم، من شـدة ظهـور آثارهـا، هـو الذي يقاوم، بـل إن روحـه تقـاوم عن بعـد وعلى دوام، بينمـا جسـمه لا يقاوم إلا عن قرب ومع انقطاع؛ بل أكثر من هـذا، إن أرواح المـرابطين تتواصل فيما بينها بما لا تتواصل أجسامهم[14]، ويُظاهر بعضها بعضا بما لا يُظاهر بعض أجسامهم بعضا. وبناء على مـا ذُكـر، يتـبين أن "المرابطـة بـبيت المقـدس"، سـواء في الماضـي، دفعـا للاحتلال الصـليبي، أو في الحاضر، دفعـا للاحتلال الإسـرائيلي، وسـواء كـان المرابطـون من أهـل القدس أو كانوا من غيرهم، إنما هي الشاهد الأمثل أو النموذج الأصــلي لما نسميه "المرابطة المقدسية".

ولنمض الآن إلى بيان كيف أن المرابطـة المقدسـية تتوسـل بالصـفتين الشــهوديتين: "الإســراء" و"المعــراج"، في التصــدي لتــدنيس الإحلال

الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الربـاط»، رواه مسـلم؛ وفي روايـات أخـرى تكـررت عبـارة فـذلكم الرباط» ثلاث مرات.

14) لولا الروح، ما كان الجسم، وإلا فطين لازب؛ ولـولا الـروح، مـا كـان التـاريخ، وإلا فسـكون سرمد؛ ولولا الروح ما كان العالم، وإلا فكيان موات.

للأرض وتزييف الحلول للفطرة، بحيث تتميز بخاصيتين أساسيتين همـا: "الخاصية الائتمانية" و"الخاصية الإشهادية".

1.3. الخاصية الائتمانية للمرابطة المقدسية ودفع إيذاء الإله

لما كان المرابط المقدسي يتصدى لتدنيس الأرض الإحلالي، فقد احتاج إلى التوسل هو بالسبب المقدسي الروحي الذي يعيد للأرض قداسـتها؛ وهذا السبب الروحي "الإسراء"؛ وخصوصية الإسراء النبوي هي كما هو معروف، أنه حصل بين مسجدين عظيمين من مساجد اللـه : المسـجد الحرام والمسجد الأقصى؛ وحقيقة المسـجد أنـه الـبيت الـذي لا يملكـه أحد غير الله، بحيث لا أدل منه على حقيقة "الأمانة" أو "الإيـداع" الـتي تشغل ذمة الإنسان[15]؛ أما إسـراء المرابـط، فيقـوم على وجـه التحديـد، في حفظ "الحالة الائتمانية الأصلية"، مستحضرا لها ومتلبسـا بهـا؛ ذلـك أن هـذه الحالـة الائتمانيـة الأولى هي الـتي عـرض فيهـا الحـق سـبحانه وتعالى على مخلوقاته الأمانة، فأبت أن تحملهـا، اسـتعظاما لأمرهـا، إلا الإنسان، فإنه ارتضى حملها؛ فهذا التعهد الأول الذي واثـق بـه الإنسـان رَبَّه هو الأصل في وجود الأمانة؛ لذلك، فـإن حفـظ المرابـط المقدسـي للحالـة الائتمانيـة الأصـلية يجعلـه يتـبين أن علاقتـه أعمالـه وتصـرفاته الرباطية ليست علاقة امتلاك، وإنما علاقة ائتمان، بجميع ناسبا ملكيتهـا الله وحده؛ تترتب على الخاصية الائتمانيـة للمرابطـة المقدسـية، نتـائج غاية في الأهمية:

أولاهـا، أن علاقـة الملكيـة بالأشـياء ليس هي العلاقـة الأصـلية للتعامـل معها، وإنما هي علاقـة فرعيـة أُذن للإنسـان فيهـا أو أنشـأها من عنـده، باسطا إرادته على ما حوله من الأشياء؛ وهي على نوعين: الملكية التي تقع على الأشياء المقدَّسة؛ والملكية التي تقع على الأشياء غير

المقدسة.

والثانية، أن علاقة المرابط ببيت المقدس بكليته أرضا وحرَما ومسجدا، لا يمكن أن تكون إلا علاقـة ائتمـان لأن هـذه الأرض وهـذا الحـرم وهـذا المسجد كلها بيوت الله، فالمقدس هو، بحق، "مدينة الله"؛ لذلك، كـان حال المرابط المقدسي في جميع أعمالـه حـال من يـدخل في الصـلاة، بل حال من يأتي بالسجود فيها؛ وليس كالسجود دلالة على الائتمان، إذ

---

[15] آثرنـا هنـا اسـتعمال لفـظ «الإيـداع » على اسـتعمال لفـظ «الأمانـة»، رفعـا للبس؛ إذ أن استعمالنا للفظ «الائتمان» قد يستفاد منه معنيـان، أحـدهما المعـنى الخـاص الـذي هـو عـرض الأمانة على الإنسان؛ والثاني المعنى العام، وهو الصفة الـتي اختصـت بهـا مقاربتنـا الفلسـفية، تمييزا لها عن غيرها من المقاربات؛ لذلك، خصصنا لفـظ «الإيـداع للمعـنى الخـاص الـذي يـدل عليه لفظ «الائتمان».

المسجد، كما ذكر، أمانة استودعها الإنسان؛ فحُـقَّ للمرابـط المقدسـي أن يكون في سجود دائم، قلبا وقالبا، حيثما كان وكيفما كان قائما كــان أو قاعدا أو على جنبه.

والثالثة، لما كان بيت المقدس" يوجب التعامل الائتمـاني بـات التعامـل الامتلاكي معه رافعا لقداسته، أي بات تدنيسا له؛ وإذا كان الأمر كـذلك، فقد لزم أن يكون تعامل الإسرائيليين مع الأرض المقدسة تعاملا مدنّسا لها، إذ يقصـرون علاقتهم بهـا على مـزاعم ملكيتهم القديمـة لهـا وعلى ضرورة استعادة هـذه الملكيـة المفقـودة؛ فـإذا أضـحوا لا ينظـرون إلى هذه الأرض إلا على أنها أرضهم قديما وحديثا، فلم تعد أرض الله، وإنهـا أرض من سواه. والرابعة، أن المرابط المقدسي لا يقابل هذه المـزاعم الإسرائيلية لملكية الأرض المقدسـة بـدعوى ملكيـة الفلسـطينيين لهـا، مستدلا على ذلك بكونهم منحدرين من الكنعانيين الذين كـانوا السـكان الأصليين لها، وإنما يواجهها بدعوى أنه مؤتمن عليهـا، حفظـا لقدسـيتها؛ فإذن لا معنى للمبدإ الإسرائيلي الذي يقـول: "الأرض مقابـل السـلام"، لأنهم لا يعقلـون من الأرض إلا الملكيـة، مـوهمين الفلسـطينيين بـأنهم على استعداد لأن ينقلـوا إليهم بعض هـذه الملكيـة؛ والحـال أن قداسـة الأرض تمتنـع على الملكيـة، والفلسـطيني مطـالب بحفـظ القداسـة، لا بحفظ الأرض بدون قداسة.

والخامسة، لقد سبق في أول كلامنا أنه ليس في الناس كالإســرائيليين أشــد تعلقــا بالملكيــة، ولا أقــدر منهم على التفنن في اختلاق طــرق تحصـيلها، إن تزويـرا أو انتحـالا أو اغتصـابا، حـتى ولـو كـانت حفريـة مزعومـة تحت المسـجد الأقصـى؛ وإذا تقـرر هـذا، ظهـر أنـه لا ينفـع الفلسطيني مطلقا أن يواجههم في مجال هم أدرى بأفـانين التحكم بـه مشهر ا حقه في الملكية في وجوههم، وذلـك لسـببين اثـنين: أحـدهما، أنه لا يبدو أن الفلسطيني يبلغ مرتبـة الإسـرائيلي في الامـتزاج بملكيـة الأرض، متماهيــا معهــا، حــتى يقــدر أن يــدفع امتزاجــه بامتزاجــه؛ فالإسرائيلي لا يملأ أفقه ولا وجدانه إلا بها، ولا يستدل إلا على استقلاله بالحق فيهـا، ولا يحكم على المعـاملات إلا بمقتضـى إقـرار الآخـرين لـه بهـذا الحـق؛ والثـاني، أن الأصـل هـو أن تمسـك الفلسـطيني بقدسـية الأرض يغلب على تمسكه بملكيتها؛ فالملكية عنده تابعة للقدسية، بينما هي، عند الإسرائيلي، مستتبعة لها؛ والشـاهد على ذلـك أن الإسـرائيلي العلماني ليس أقل من الإسرائيلي الدياني تشبثا بملكية الأرض.

بناء على هذه النتائج، نوضح كيف يمكن للمرابط المقدسي أن يقاوم تدنيس الإحلال لأرضه مقاومة ائتمانية، أي مقاومة تتمسك بكون هذه الأرض أمانة في ذمته عليه واجب حفظ قداستها. فقد ذكرنا أن في هذا الإحلال إيذاء للإله، لأنه ينازعه في صفة "المالك"؛ فيتعين على المرابط المقدسي أن يتوسل، في مقاومة الإحلال بمقاومة هذه المنازعة للإله؛ ونميز في هذه المقاومة ثلاث مستويات، وهي: "تجريد الإسرائيلي من وصف المالك" و"ترسيخ ثقافة الائتمان" و"استرداد الأمانة".

1.1.3. المستوى الأول للتصدي لمنازعة الإله: تجريد الإسرائيلي من المالكية؛ لما أظهر الإسرائيليون من طغيان التملك ما جعلهم ينسبون إلى أنفسهم، حتى ما يختص به الحق سبحانه، تولّى المرابط المقدسي التصدي لهذا الطغيان الامتلاكي، لا نصرة لأرضه من حيث هي أرضه، وإنما نصرة لربه من حيث ائتمنه عليها؛ والمبدأ الذي يقوم عليه هذا التصدي هو نزع صفة "المالكية" عن الإسرائيليين كليا، فيؤمن، على وجه القطع، بأنهم لا يملكون شيئا مهما احتلوا من الأراضي؛ وفضل هذا الإيمان القاطع هو أن يُورثه من الاستعداد الروحي ما يقوى به على عدم الإقرار للإسرائيليين بأي شيء احتلوه، ولا إقرارهم على أي شيء اكتسبوه، أيا كانت الضغوطات التي تمارس عليه، وأيا كانت التضحيات التي تترتب على إنكاره وامتناعه.

وحيث إن مؤسسة "الدولة" هي علامة المالكية الكبرى، فإنها تكون أول شيء يبدي المرابط المقدسي عدم الإقرار به للكيان الإسرائيلي، فيأتي أقواله وأفعاله بما يُظهر لهذا الكيان أنه ينزع عنه صفة الدولة، مبتكرا على الدوام أساليب تُجرّده من اللباس المؤسسي [16]؛ ولا بد، في مواصلته للابتكار وصبره على الاختبار، من أن يصل إلى زعزعة ثقة هذا الكيان بمشروعيته، وإلا فلا أقل من التشكيك في مستقبل وجوده، تمهيدا لنهايته.

ورب قائل يقول إن في المرابطة على هذا الإنكار تحدّيا للمؤسسات العالمية والقوانين الدولية التي اعترفت بصفة "الدولة" لهذا الكيان الغاصب؛ والجواب عن هذا الاعتراض من الوجوه الآتية:

[16] لن يقدم هذا المرابط القدرة على الابتكار لقوة الروح المؤيد بها.

أولها، أن هـذه المؤسسـات والقـوانين لم تكن من الأصـل منصـفة في مسألة فلسطين، وإلا ما كانت لتنشئ كيانـا حيث لا يحـق لهـا، بـل إنهـا مبنية في أصلها، على قواعد ظالمة ليس هذا مقام الخـوض فيهـا؛ ومن يقبل بهذه المؤسسـات والقـوانين إنمـا يخـون الأمانـة الـتي في عنقـه، والمرابط لا يمكن أن يخونها.

والثـاني، أن هـذه المؤسسـات والقـوانين تكيـل بمكيـالين: فمـا تعلّـق بالكيـان الإسـرائيلي من قـرارات بـادر القـائمون عليهـا إلى تطبيقـه وتظاهروا عليه؛ وما تعلّق بمن هم ضحايا هذا الكيان تركوه في حينـه أو أجلــوه إلى حين نســيانه؛ فهــل في الظلم أعظم من أن تُصــدر هــذه المؤسسات الدولية، على مر السـنين مئـات القـرارات الأمميـة لصـالح فلسطين، ولا تعمل على تطبيق أي واحد منها إلى حد الآن!

والثالث، أن هذا العالم أضحى بلا حياء، إذ لا يستحي أن يقول أهله بـأن علاقات الدول تقوم على المصالح، لا على المبادئ؛ ليتها كـانت مصـالح مشـروعة، وإنمـا هي المصـالح الـتي تخـدم أغـراض الـدول في تسـلّط أقواها على أضعفها والتي تتقلب بتقلب حكامها وأطمـاعهم؛ والمرابـط المقدســي يؤســس عالمــا مبنيــا على المبــادئ الأخلاقيــة والمصــالح الإنسـانية. وبـدهي أن المرابـط، لمـا كـان قـادرا على إنكـار المالكيـة الإسرائيلية في صورة الدولة، كان أقدر على أن يُنكرها في الصور التي دونها، بدءا بـ"التنسيق الأمني" الذي يعينهـا على تثـبيت هـذه المالكيـة، وانتهـاء بــ" التطـبيع الكلي " الـذي يُمكنهـا من تأييـدها؛ ولـو أن هـذه المالكية تُؤيَّد لا قدر الله، لكان في ذلك نهاية لمالكية بعض أولئك الذين سعوا في هذا التأبيد.

ومتى سلمنا بالمرابطة المقدسية وما توجبه من دفع أذى الإســرائيليين عن رب العالمين - هذا الأذى المتمثـل في ادعـائهم المالكيـة المطلقـة للأرض المقدسة - لـزم أن تكـون الخيـارات الـتي لا تأخـذ بلـوازم هـذه المرابطة خاطئة؛ ونخص بالذكر منها "خيـارات السـلطة الفلسـطينية"، ونوضّح خطأها من الوجوه الآتية:

أولهـا، أن هـذه السـلطة وقعت فيمـا وقـع فيـه الكيـان الإسـرائيلي من طلب "المالكية"، وليس هذا فحسب، بل إنها تطلبها على الطريقة التي يطلبها هذا الكيان الغاصب كأنها تقابل المثل بالمثل، اعترافـا بـاعتراف ونظاما بنظـام ودولـة بدولـة؛ وواضـح أن طلب المالكيـة منـاف للتحلي بالائتمان الذي يوجبه الوقت، إذ هو وقت محو آثـار الإحلال، وليس وقت

التحكم في الرقاب، فتكـون هـذه السـلطة قـد وقعت على قـدرها، في المنازعة الإلهية، حيث كان ينبغي أن تنهض بالأمانة الإلهية.

والثاني، أنها تسعى إلى إقامة الدولة الفلسطينية على جزء محـدود من الأرض المقدسة؛ ويجعلها هذا السعي تُخلّ بأمانة حفـظ القداسـة الـتي في ذمتها، إذ تنقل جزءا مقدسـا من هـذه الأرض لمن لم يكن ملكـا لـه أصلا؛ والكيان الإسرائيلي لا يعتبر نقل هذا الجـزء إليـه تنـازلا من جـانب الفلسطينيين عن حقهم، ولا الـدول الـتي تسـانده تعتـبره كـذلك، وإنمـا يعتـبره ردا للحـق إلى مسـتحقه؛ ومـتى اتخـذ هـذا النقـل صـورة الـرد المستحق تكون السلطة قد أقرت بحق هـذا الكيـان التـاريخي في هـذا الجزء المقدس كما لو كان أسـلاف الإسـرائيليين ائتمنـوا الفلسـطينيين عليه، فورثوا هذه الأمانة، جيلا بعد جيـل، إلى حين أن جـاء موعـد ردّهـا إلى خلفهم، مما يجعل الدولة الفلسطينية تشارك هذا الكيـان الغاصـب تدنيس هذا الجزء المنقول إليه.

والثالث، استطاع الكيـان الإسـرائيلي أن يصـرف السـلطة الفلسـطينية عن طلب "مالكيـــة الأرض" إلى الاســتغراق في "مالكيـــة الكلام"، إذ الكلام يُملك كما تملك الأرض؛ فقد أدخلها هذا الكيان في مسلسـل من المفاوضـات الـتي لا نهايـة لهـا، حـتى أضـحى المسـؤول الفلسـطيني يفاوض من أجل أن يفاوض، مستمتعا بملكية كلامه في التفـاوض، بـدلا من ملكية أرضه، وكأن المفاوضة أمسـت تغنيـه بـالمرة عن المقاومـة، بله المرابطة، بل وكأن الجزء الذي دنّسه الاحتلال من أرضه بـات قـاب قوسين من أن ترجع إليه قداسته بمجرد قول ما قال.

والرابـــع، أن التزامـــات الســـلطة. مـــع الكيـــان الإســـرائيلي جلبت للفلسـطينيين من فـاحش الأذى مـا لم يكن يجلبـه لهم عـدمها؛ إذ أن وفاءها بها لم يكن يقابله من جانب هذا الكيان مثله، ثم إنها أفضت كما هو بين، إلى تداخل المصالح والمآرب مع هذا الكيان، اسـتتباعا للجـانب الفلسطيني، بل أفضت إلى طلب المكاسب الإدارية والحظوظ المادية، حتى فترت الهمم وأنسـت، برغـد العيش النفـوس؛ وحينئـذ، لا غـرو أن يستديم الكهول والشيوخ منهم وجودهم في رأس المناصـب السياسـية والإدارية، غـير قـادرين على الانبعـاث الربـاطي الـذي لا يقـدر عليـه إلا الشباب وأولئك الذي لم تُفسدهم هذه الوظائف، ذكورا وإناثا.

2.1.3. المستوى الثاني للتصدي لمنازعة الإله: ترسيخ ثقافة الائتمان؛ لا يكتفي المرابط المقدسي بنزع وصف المالكية عمن يطلبونها حقيقية كانت أو وهمية، متوسـلا في ذلـك بأعمـال متجـددة ومسـتمرة تكشـف

لأحد الطرفين ظلمه لربه، وتكشف للطرف الآخر ظلمه لنفسه، بل ينشغل بالحد من انتشار "ثقافة الملكية" التي تجعل القضية الفلسطينية محصورة في نطاق ملكية الأرض، حريصا على إقامة ثقافة بديلة منها، وهي "ثقافة الائتمان"؛ فالأرض المقدسة هي، أصلا، أمانة، وملكيتها إنما هي تبع؛ ووجود الإحلال يوجب تقديم اعتبار الأمانة على اعتبار الملك، لأن الإحلال تدنيس للأرض صريح، فلا تقدر على دفعه إلا قدسية الوسيلة، وقدسية الوسيلة تكمن في الائتمان، وليس في الامتلاك، فضلا عن أن المقاومة مع الشعور بالقدسية أثبت قدما وأشدُّ بأسا من المقاومة بدون هذا الشعور؛ والحال أن الإحلال غاية في البطش والخبث، فلا تنفع معه إلا المقاومة التي تسري فيها روح القداسة؛ ولا يتسع المقام لبسط القول في ثقافة الائتمان، ولنكتف بذكر بعض المبادئ التي تأخذ بها، وبيان كيف أنها تورث الروح الائتمانية، وهي أربعة:

أ. مبدأ رد الظواهر إلى الآيات[17]؛ ذلك أن الموجودات الظاهرة تتحدد قيمتها الائتمانية بدلالاتها المعنوية، بحيث تنزل منزلة الآيات الكونية، فمثلا، المسجد الأقصى بإفادته معنى "الصلاة الجماعية للأنبياء" آية كونية كبرى؛ كما أن التصرفات الظاهرة تتحدد قيمتها الائتمانية بدلالاتها الأخلاقية، بحيث تنزل منزلة "الآيات الشرعية"؛ فمثلا، السجود بإفادته معنى "القرب من الإله" آية شرعية عظمى.

فلا ينفك المرابط يبث النظر الآياتي في فضائه المقدسي، لأن هذا النظر يوسع أفق الحكم على الأشياء بما يجاوز أفق العالم المنظو بعالم غير منظور لولاه ما كان؛ وهذا العالم غير المنظور الملازم للعالم المنظور هو ما يسمى بـ"عالم الملكوت"، أي عالم المعاني الروحية والقيم الأخلاقية؛ وبقدر ما تقوى صلة المقاوم بهذا العالم الملكوتي، يترك إضافة ظواهر الأشياء إلى نفسه، ويضيفها إلى ربه؛ إذ يتبين أن الأصل في وجود الظواهر التي بين يديه المعاني أو القيم التي من خَلْفها؛ وكما أنه لا يملك هذه القيم والمعاني الخفية، فكذلك لا يملك ما تتصل به من الظواهر الجلية، حتى ولو كان يتصرف في هذه الظواهر كيف شاء و متى شاء لوجود يقينه بأن هذا التصرف إنما هو تسخير له من مالكها الحق الذي هو مالك معانيها وقيمها.

ب. مبدأ توارث الآثار الروحية للأعمال؛ لئن كانت الآثار المادية تبقى بعد فناء الأعمال التي صنعتها، بل تبقى بعد فناء العاملين، فبأن تبقى

[17] إنما الأشياء ببواطنها، موجودات كانت أو تصرفات؛ فإذا فسد باطنها، فلا اعتبار بظاهرها، حتى ولو صلح.

الآثار الروحية، بعد فناء العاملين، فضلا عن أعمالهم، من باب أولى؛ غير أن الآثار المادية مهما طال زمانها، فهي إلى زوال، بينما الآثار الروحية تبقى بقاء لا زوال بعده؛ ومتى صح هذا، صح معه أيضا أن الآثار الروحية التي تركها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، في "بيت المقدس" لا تزال تظلل أكنافه، وأنها تُورث كما تورث الآثار المادية، إذ يرثها أولئك الذي صاروا على نهجهم، ونهلوا من علمهم؛ وهذا الموروث الروحي الذي يلازم "بيت المقدس" ويصله بعالم الملكوت وصفه القرآن الكريم في آيات تفيض معانيها بـ"إسلام الوجه الله[18]. وقد نطلق على هذا الموروث اسم "الصبغة المقدسية"، تنبيها على شموله للأنبياء الذين أقاموا بالأرض المقدسة وما حولها أو صلَّوا في بيت المقدس.

فإذا كان المقاوم في "بيت المقدس" يرث هذه الصبغة كما يرث أرضه ومسجده، فإنه يحتاج إلى الإيقان أكثر من سواه بأن هذا الإرث ليس. ا من حظوظه أو كسبا من مكاسبه، وإنما هو فضل خالص من ربه؛ إذ أن الحق سبحانه أضافه إلى نفسه، قائلا: "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة"، فيتعين على المقاوم، وهو يتطلع إلى أن يكون مرابطا مقدسيا، أن يروّض نفسه على تَجرُّدين اثنين، أحدهما، أن يتجرَّد من نسبة نصيبه من هذا الميراث الروحي إلى نفسه، متحققا بأنه أمانة في عنقه؛ والثاني، أن يتجرد من نسبة العمل بهذا النصيب إلى نفسه، موقنا بأنه سبحانه هو خالق هذه الصبغة والهادي إليها.

ج. مبدأ رؤية الإرادة الإلهية في العالم؛ إذا كان الإسرائيلي، بحكم سلطان الملكية على قلبه، يقع في منازعة الإله، فإن هذه المنازعة تتخذ عنده صورة إثبات إرادته في مقابل إرادته سبحانه؛ فحتى يتقي المقاوم، وهو يجاهد من أجل حقوقه في أرضه، الوقوع، من حيث لا يقصد، في هذه المنازعة الشنيعة للألوهية، فلا مناص من أن يروّض نفسه على الخروج عن إرادته إلى إرادة ربه؛ ويقتضي منه هذا الخروج أن لا يرى شيئا إلا ويرى إرادة الله فيه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولا تحسبن أن شهوده لإرادة الله في كل شيء تسلبه إرادته، وإنما، على العكس ترتقي بها إلى حال تجعلها موصولة بإرادة الله

---

18 تدبر الآيات الكريمة: «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النبيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّهَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ»، سورة البقرة،.138-135

فيرضى بما أراد به ربه كما يرضى على ما أراد لنفسه بنفسه. وقد قدر الحق سبحانه وتعالى أن ينتزع الاحتلال الإسرائيلي منه ملكية أرضه، لكنه لم يقدر أن ينزع منه حق الائتمان على هذه الأرض فيرى المقاوم في هذا الذي لم يُقدَّر امتحانا ربَّانيا - أو قل ابتلاء - لإرادته هل تنهض لأداء الأمانة التي أودعها لديه، وهي "حفظ قداسة هذه الأرض" ولو فاتت الأرض إلى المحتل ؛ ولا يزيده ذلك إلا مضاء في العزيمة، مصمما كأشد ما يكون التصميم على استرداد الوديعة، حتى كأن إرادته غير إرادته؛ وهكذا، فإن المقاوم، وهو يشهد ما أراد به ربه فيما حل به يُعطى إرادة من إرادته سبحانه، إرادة تجعله قادرا على أداء أمانته؛ ومتى فرغ من أدائها، رجعت إليه أرضه وكأنها لم تنتزع منه. د. مبدأ أسبقية الواجب الائتماني على الحق الامتلاكي؛ لا يخفى أن الفرق بين "الملك" و"الأمانة" هو أن الملك يورث الحق، وهذا الحقُّ يجيز للمالك التصرف في ملكه بنقله إلى غيره، أو بإتلافه لسد حاجته، بينما الأمانة تورث الواجب، وهذا الواجب يتطلب من المؤتَمَن أن يحفظها ويرعاها، ولا يتصرف فيها إلا بالوجه الذي أُذن له به؛ ولما كان الأصل في العلاقة بالأشياء هو الائتمان، وليس الامتلاك، لزم أن تنبني هذه العلاقة على الواجبات، وأن يكون التمتع بالحقوق مشروطا بالوفاء بها؛ هذا، إذا تم حمل الأمانات في ظروف مأمونة، أما إذا كان هذا الحمل محفوفا بأخطار الإضرار بها، فقد لا يهم إلا النهوض بالواجبات، ولا يلتفت إلى الحقوق جزاء لأدائها.

ويبدو أن حال الفلسطيني أسوأ من هذا؛ فليس يساء إلى الأمانة التي قبل أن يحملها فحسب، بل يُحال بينه وبين حملها، إذ أن الاحتلال لا يكتفي بأن يجرده من حقوقه، بل يبتغي إيقاعه في نقض الميثاق الملكوتي الذي أُخذ منه، مانعا له من أداء أوجب واجباته كالصلاة التي بها معنى وجوده؛ فكاد الفلسطيني أن ينزل إلى رتبة أدنى من الوقوف عند الوفاء بالواجبات، إذ أضحى لا يعنيه إلا تبين ما هي الواجبات التي تقتضيها مأساة وضعه؛ لذلك، يتعين على الفلسطيني المقاوم أن يجدد إيمانه بميثاق الائتمان، حتى يتعرف إلى واجباته حق المعرفة مبادرا إلى القيام بها، غير طالب أعراضا عنها ولا حظوظا فيها، لأن تبادل الواجبات الائتمانية بين المقاومين كفيل بأن لا يُضيّع حقوق أي واحد منهم أو يحرمهم من ثمار أعمالهم.

ومجمل القول في ثقافة الائتمان أنها تُزوّد المقاوم بالقدرة على النظر الآياتي وبنصيب من الموروث الروحي، كما تجعله يصل إرادته بإرادة ربه، ويُجدّد إيمانه بميثاق الأمانة المأخوذ منه؛ وكل هذه العوامل

الائتمانية لا ريب أنها تُسهم في إعـادة بنـاء الإنسـان الفلسـطيني، عقلا ووجدانا.

3.1.3. المسـتوى الثـالث للتصـدي لمنازعـة الإلـه: اسـترداد الأمانـة المسـلوبة؛ لـو أن المـرء يحصـي أشـكال الأذى الـتي تتعـاقب على الفلسطينيين من لدن الإسرائيليين ومن بـني جلـدتهم، وحـتى من لـدن أنفسهم باعتبار أخطائهم، لأصابه اليـأس من قـدرتهم على دفعهـا؛ فقـد ذكرنا بعض ما يُنزله المحتل بهم من صنوف البلايـا ومـا وقعـوا هم فيـه من أخطاء لا يزال بعضهم يصر عليها؛ ولكن لم نـذكر مـا فعلـه بهم بنـو جلدتهم، وقد أفسدت قلوبهم شهوة الحكم وكثرة المـال؛ فلقـد أحـدثوا منعطفـا في إيـذائهم لا أظلم منـه؛ فلم يكتفـوا بمظـاهرة المحتـل في حصاره لهم، إغلاقـا للمعـابر وقطعـا للمعونـات وهـدما للأنفـاق واتهامـا بالإرهاب وتهوينا للمقدَّس وإضعافا للمعتقد واتجارا بقضيتهم، بـل دلـوه كأوضح ما تكون الدلالة على مقدار التنكيـل الـذي يمكن أن يوقعـه بهم في مستقبل المواجهة معه، ضاربين له أمثلة صارخة بما فعلوه هم في شعوبهم اعتقالا واختطافا وابتزازا وتعذيبا وتقـتيلا وتجويعـا. فكيـف إذن، والحال هذه، يسترد المقاوم الفلسطيني أرضه؟ فلو أنه يقصر مقصـده على استرجاع ملك مغتصب لم يكن له إلى ذلك من سبيل متى وضـعنا في الاعتبار أن العرب أضـحوا ظهـيرا للإسـرائيليين في قتـل المقاومـة الفلسـطينية، فضـلا عن أن المؤسسـات والمنظمـات والقـرارات لن تجدي نفعا أمام هذا التعاون الهجين بين ذينك الطرفين؛ هذا عن عمـوم المقاومـة الفلسـطينية، لكن مـاذا عن خصوصـها، وهـو "المرابطـة المقدسية"، فهل تقدر هي على ما لم يقـدر عليـه غيرهـا؟ ممـا لا شـك فيه أن المرابط المقدسي يرى أنه من الضروري تغيير خطـة المقاومـة المتبعة إلى حد الآن رأسا على عقب، وذلك للاعتبارات التاليـة: أحـدها، أنه ينظر إلى أرض فلسطين على أنها ليست ملكا تحت يده، وإنمـا هي أمانة في ذمته؛ ولا ينظر إلى هذه الأمانة على أنها ائتمـان على الأرض، وإنما هي ائتمان على قداسـتها؛ ولا ينظـر إلى هـذه القداسـة على أنهـا تزول عن هـذه الأرض ولـو تعرّضـت للتـدنيس، وإنمـا هي، في الأصـل، باقية ببقاء الأرض وبعدها.

والثاني، أنه يشهد أن العالم قـل حيـاؤه، بـل ذهب حيـاؤه، الأمـر الـذي يجعل الإنسانية تدخل طورا جديدا من تاريخها وهـو الطـور الـذي يمكن أن نسميه بـ"عالم ما بعد الأمانة"؛ وعلامة ذلك "تذبيح الأمـة" و"صـفقة القرن"، فلا يمكن أن يحصـل هـذا التـذبيح وهـذه الصـفقة إلا في عـالم كادت أن تُرفع منه الأمانة.

والثالث، أنه. يؤمن بأن مقاومته حالة لا يَحدُّها زمان ولا مكـان، ولـو أن "بيت المقدس" هو منبعها ومزوّدها، ولا أنها تختص بالفلسـطيني، وإنمـا تشمل كل إنسي، إذ عالم ما بعد الأمانة بات على الأبـواب، كمـا يـؤمن بأن الأمانة التي في عنقه ليست وقتيـة أو ظرفيـة، وإنمـا هي سـرمدية يحملها الجيل من المرابطين بعد الجيل إلى نهاية العالم.

بناء على ما ذكرناه من الاعتبارات، يقرر المرابط المقدسي تغيير خطة المقاومة، مقصدا ومنهجا.

أما عن المقصد، فلم يعد يحصره في حفظ قداسة الأرض، ولا، بـالأولى في حفظ الأرض كما يفعله غير المرابط، بـل جعلـه يتعـدى إلى "حفـظ مبدإ الأمانة" نفسه، اعتبارا لمال العالم، إذ. "عالم ما بعد الأمانــة"، أي، في نهاية المطاف، جعل مقصده هو "حفظ ميثاق الأمانـة" الـذي أخـذه الحق سبحانه من الإنسان؛ وهذا يعني أن الأمانة التي يحملهـا المرابـط المقدسي ليسـت ردهـا، وإنمـا الأمانـة مضـافة إلى نفسـها، أي "أمانـة الأمانة"؛ فالمرابط المقدسي هو الأمانة بمجرد الإنسـان المـؤتمن على الأمانة بما هي أمانة.

يترتب على هذا أن استرداد أمانة الأرض المقدسـة لا يكـون إلا بطريـق استرداد الأمانة مطلقا، لأن هدف الإحلال الإسرائيلي ليس مجرد احتلال الأرض، وإنما إلغاء مبدإ الأمانة، تأسيسا لعالم ما بعد الأمانة؛ كما يترتب عليه أن "المرابطة العالمية" أضحت عملا ضروريا لطرد شبح "عالم ما بعد الأمانة" الـذي يلـوح في الأفـق، فكـل مكـان من العـالم بـات ثغـرا محتملا للمرابطـة؛ والمرابطـة المقدسـية إنمـا هي نمـوذج المرابطـة العالمية؛ إذ هي حالة روحية يتلبس بها كـل إنسـان يريـد تجـنيب العـالم مجيئ نهاية الأمانة، فضلا عن تطهير الأرض المقدسة من دنس الإحلال الإسرائيلي، لأن في استمرار هذا الإحلال علامة على نهاية الأمانة. وأما عن المنهج، فليس من المجدي في شـيء تسـقط الاعترافـات وتلقـف القرارات، لأنها لا تزيد عن كونها بمنزلـة المسـكنات الـتي تُخـدّر الهمم وتؤجل العلاج إلى أجل غير مسمى؛ لذلك، فإنها لا تزيـد إلا في مكابـدة الفلسطينيين، بل إنها تسهم في محو الأمانة من القلوب، وترسيخ عالم بلا حياء. فلا يبقى إذن إلا بثُ الروح الرباطية في كل مكان، وقـد ذكرنـا من أوصافها ما يجعلهـا أقـدر من غيرهـا على دحـر الاحتلال، بـل قـادرة على إخراج العالم من أزمته الائتمانية، معيدة إليه الحيـاء المفقـود، بـل قادرة على تجديد الإنسان، معيـدة إليـه الإيمـان بميثـاق الأمانـة؛ وبيـان هذه القدرة من الوجوه الآتية:

أولها، أن هـذه الـروح الرباطيـة تؤسـس القـوة الماديـة المسـتندة إلى المعرفة بمستلزمات الـوقت، عـدة وعتـادا، على القـوة المعنويـة الـتي ترفع الهمة إلى الأفق الملكوتي، بحيث يُؤْثِر صـاحبها ثـواب الآجـل على ثـواب العاجـل، مسـارعا إلى البـذل، إنفاقـا لمالـه أو جـودا بروحه[19]. والثاني، أنها تجمع بين الأساليب الجماهيرية التي تُطلق تدفق الطاقات وتوسع نطاق التأثير وبين الأساليب الدفاعية التي تنتقي الأهـداف بدقـة والأوقات بثقة، بحيث لا تُظهر ترددا، ولا ضعفا، ولا استكانة مهمـا كـانت التضـحيات المبذولـة، صـابرة ومصـابرة[20]. والثـالث، أنهـا تتوسـل بكـل الأسباب المعنوية والمادية التي تناسب كل رباط على حدة حيثما كـان، متدرجة في استعمالها بحسب التطـورات وردود الأفعـال، ومعدّلـة لهـا. الإنجازات والتطلعات، بحيث تكون لكل رباط خصوصـيته في محـو آثـار أذية الاحتلال وأمارات نهاية الائتمان.

والرابع، أنها تمارس الابتكار بقـوة، تنويعـا للوسـائل وتجديـدا للأسـاليب وتطويرا للقدرات وفتحا للآفاق، حـتى تحافـظ على عنفوانهـا وعطائهـا، فتتمكن من التصـدي لمختلـف أشـكال تأبيـد التسـلط الـتي يلجـأ إليهـا الاحتلال.

بعد أن انتهينا من بيان الخاصـية الائتمانيـة للمرابطـة المقدسـية - هـذه الخاصية التي تجعل المرابـط تسـري روحـه، متجـردة من طلب الملـك ومضطلعة بواجب الأمانة – وتوضيح كيف أنها تفيـد في مقاومـة الإحلال الإسـرائيلي المـدنس للأرض، ننعطـف على بيـان الخاصـية الثانيـة للمرابطة المقدسية، وهي الخاصية الإشهادية"، ونوضح كيـف أنهـا تفيـد في مقاومة الحلول الإسرائيلي التي يزيف الفطـرة، متسـببا في وجـود حالة التطبيع.

2.3. الخاصية الإشهادية للمرابطة المقدسية ودفع إيذاء الإنسان

لما كان المرابط المقدسـي يتصـدى لـتزييف الفطـرة، فقـد احتـاج إلى التوسل بالسبب المقدسي الروحي الذي يعيـد للفطـرة أصـالتها، وهـذا

---

[19] جاء في رواية أبي هريرة لقصـة الإسـراء والمعـراج أن الطائفـة الأولى الـتي رآهـا الرسـول صلى الله عليه وسلم في إسرائه هي. طائفة المجاهدين، إذ قال: فسـار" وسـار معـه. جبريـل عليهما السلام، قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصـدون في يـوم، كلمـا حصـدوا، عـاد كما كان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل، ما هـذا؟» قـال: هـؤلاء المجاهـدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء، فهـو يخلفـه، وهـو خـير الـرازقين»، انظـر ابن كثـير، تفسـير القـرآن العظيم، ج 3، ص،27، مؤسسـة الريـان، الطبعـة الثامنة 2003.

[20] تدبر الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، سورة آل عمران، 200

السـبب الـروحي هـو "العـروج"؛ وخصوصـية العـروج النبـوي، كمـا هـو معروف، هو أن الحق سبحانه وتعالى أشـهد رسـوله من آياتـه العظمى وصفاته الحسنى ما لم يشهده أحدا؛ أما عـروج المرابـط، فيقـوم، على وجـه التعـيين، في حفـظ "الحالـة الإشـهادية الأصـلية"، مستحضـر الهـا ومتلبسا بها؛ ذلك أن هذه الحالة الإشهادية الأولى هي الـتي أشـهد فيهـا الحق سبحانه وتعالى ذريات بـني آدم، على ربوبيتـه ووحدانيتـه، متجليـا عليهم بصـفاته وآخـذا منهم الميثـاق ؛ ذلـك أن هـذا الإشـهاد الأول هـو، بالذات، الأصل في وجود الفطـرة؛ إذ أن مـا تنطـوي عليـه الفطـرة من المعاني الروحية والقيم الخُلُقية إنما هو من آثـار التجليـات الإلهيـة يـوم الإشهاد والـتي تـدل عليهـا أسـماؤه الحسـنى؛ وحينهـا، يُـدرك المرابـط المقدسي أن هذه المعاني والقيم المفطور عليها هي الـتي تجعـل منـه الإنسـان المـراد لربـه؛ فمـا من عمـل يأتيـه، دافعـا بـه أذى الحلـول الإسرائيلي، إلا وهو موقن بأن إرادة ربـه تتـولاه فيـه [21]؛ فعلامـة أصـالة الفطرة عند المرابط، هي أن فطرته هي عبارة عن إرادة الله فيه.

يلزم من التعريف السابق لأصالة الفطرة أن علامة زيفها عند الحلـولي المطبع هي كون فطرته هي إرادة غـير اللـه فيـه، وليس هـذا الغـير إلا المحتـل الإسـرائيلي؛ ففطـرة المطبـع هي إرادة الإسـرائيلي فيـه، إذ أضحى الإسرائيلي نازلا منه منزلة إله حـال فيه[22]؛ ولمـا اتحـدت فطـرة المطبّع بإرادة الإسرائيلي، فقد استوجب التصـدي لزيـف الفطـرة عنـد المطبع التصدي لإرادة هذا أن مواجهة تزييف الفطرة عند المطبع ترجع إلى مواجهـة الإسـرائيلي فيه[23] ينتج من الأذى الـذي توقعـه الإرادة الإسرائلية بالإنسان لا من حيث هو فلسطيني فحسب، بـل م حيث هـو إنسان؛ وخصوصـية المرابـط المقدسـي دون غـيره من المقـاومين أنـه يتولى دفع هذا الأذى عن الإنسـان، حيثمـا كـان؛ إذ أرض اللـه الواسـعة كلها تغدو، في عينيه، رباطه ومَقْدسـه. ولا يقـال إن الحـق الفلسـطيني يتعرض للنسيان أو الضياع لو أن المرابط المقدسي يوجه مقاومتـه إلى

---

[21] تدبر الآية الكريمة: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، سورة الأنفال، 17.

[22] بمعنى أنه ما من عمل يأتيه المطبع الحلولي إلا وكأن الإسرائيلي هو الذي يأتيـه، قالبـا قيمـه أو سالبا ذاته.

[23] لا أقـدر من المرابـط المقدسـي على معرفـة مكانـة الإرادة من الإنسـان لأن الأصـل في المرابطة هو ترك إرادة الذات إلى إرادة الله، ويقتضى هذا الترك مكابدة لا تنقطع ومصـابرة لا تفتر، لأنه إدبار عن القيم المضادة للفطرة؛ أما الأصل في التطبيع، فهـو تـرك إرادة الـذات إلى إرادة إسرائيل، وهذا الترك لا مكابـدة فيـه ولا مصـابرة، لأنـه إقبـال على مزيـد القيم المضـادة للفطرة.

حفظ الإنسان، لا إلى حفظ أهل فلسطين؛ الجواب عن هـذا الاعـتراض من وجوه:

أحـدها، أن الإنسـان الفلسـطيني أكـبر من أن يكـون إنسـان قـوم مخصوصين، وإنما هو إنسان العالم كلـه، لأنـه قُـدِّر عليـه أن يوجـد في الـزمن الأخلاقي الـذي توشـك فيـه الإنسـانية أن تـدخل "عـالم مـا بعـد الأمانة"، بل "عالم ما بعـد الميثـاق"، وأن يُـؤتمن على الـذود عن القيم الفطرية في هذا الزمن الأخلاقي المتردي، حفظا للإنسان.

والثاني، أن الأذى الذي يتعرّض له الإنسان الفلسـطيني بلـغ من السـوء حداً لم يعد بالإمكان أن يبقى شأنا يخصه، بل أضحى شأنا يعم الجميـع، لا من جهـة انشـغال المجتمـع الإنسـاني بحقـوق الإنسـان، ولا من جهـة اهتمام المحافـل الدوليـة بقضـيته، وإنمـا من جهـة تـأذي هـذا المجتمـع الشامل بما يتأذى به الإنسان الفلسـطيني، قلبـا للقيم وسـلبا للفطـرة. والثـالث، أن القيم الفرعيـة الـتي يمكن أن يختص بهـا الإنسـان الفلسطيني بما هو عربي أو مسلم أو غيرها من الصفات الذاتية شقّت، من شدة الأذى الذي لحق به ومن قوة الصمود الذي أبداه، طريقها إلى أن تصبح فيما لكل إنسان في هذا العالم؛ فكم من أفراد الإنسانية باتوا يحملون، في أنفسهم، هذه القيم، كأن لسـان حـالهم يقـول: "الإنسـان بما هو إنسان هو فلسطيني".

وحـتى يتـبين كيـف يتعـاطى المرابـط المقدسـي لـدفع تزييـف الحلـول للفطرة، يمكن تقسيم المطبعيين، باعتبـار سـعة تـأثيرهم في محيطهم إلى فئـتين: "فئـة الأفـراد" و"فئـة الأنظمـة"؛ فيتعين على المرابـط المقدسي أن يقاوم تجليات الإرادة الإسرائيلية في سـلوك الأفـراد كمـا يقـاوم تجلياتهـا في مؤسسـات الأنظمـة؛ فلنوضـح هـذين النـوعين من المقاومة: "مقاومة تجليات الإرادة الإسرائيلية في السـلوك التطـبيعي" و "مقاومة تجليات هذه الإرادة في التدبير التطبيعي".

1.2.3. مقاومة تجليات الإرادة الإسرائيلية في السلوك التطبيعي؛ حيث إن الإرادة الإسرائيلية تزييف للفطرة، فلا بد أن تتجلى في سلوك الفرد المطبع بصفة تضـاد، على الأقـل، قيمـة من قيمـه الفطريـة؛ وحيث إن أذى هذه الإرادة قد بلغ ذروته، فلا بد أن تتعلق هذه الصفة بقيمـة توقـع هـذا الفـرد في خيانتـه لنفسـه؛ والخيانـة للنفس هي، بالـذات، تعبيـدها لغيرها؛ إذ الأمانة التي في عنقه "حفظ حريته"، هذا الحفظ الـذي يقيـه انقلاب قيمـه وانسـلاب فطرتـه؛ وواجب المرابـط المقدسـي أن يعمـل على تحرير الفرد المطبع من هذه العبودية بكـل مـا أوتي من الوسـائل

العملية لهذا التحرير، كاشفا دلائل التعبيد في سلوكه ومساوئ تأثيره في إنسانيته؛ فلنذكر بعض هذه الدلائل والمساوئ التعبيدية في السلوك التطبيعي التي يتولى المرابط المقدسي كشفها ودفعها.

أما الدلائل على تعبيد الفرد المطبع، فمنها أن الامتثال للإرادة الإسرائيلية يُفقده الشعور الائتماني بالحرية كما يفقده الشعور بالحرية السابقة على الائتمان؛ ففيما يتعلق بفقدانه للشعور الائتماني بالحرية، لم يعد ينظر إلى الحرية على أنها أمانة، إذ أن أمانة الحرية توجب عليه الوفاء بمقتضياتها الملكوتية الخاصة التي تعهد به لربه، بل أضحى ينظر إليها على أنها مُجرَّد مكسب سياسي؛ والأصل في المكاسب السياسية أن يُغني بعضها عن بعض، لأن قوامها واحد، وهو "المصالح المادية"؛ فيكون الفرد المطبّع على استعداد لترك حريته بمقدار ما يعتقد تحصيله من المصالح الوهمية التي تلوح له بها الإرادة الإسرائيلية.

وفيما يتعلق بفقدانه الشعور بالحرية السابقة على الائتمان، فمعلوم أن الإنسان خُيّر خيارا ملكوتيا في تحمّل الأمانة؛ وهذا الخيار السابق على الأمانة هو بمثابة خيار سابق على كل مصلحة، إذ لم تتعين بعد الأمانة؛ غير أن الإرادة الإسرائيلية تجعل المطبّع لا يتصور إمكان وجود حالة تخلو من المصلحة المادية، حتى إنها تستطيع أن توهمه بالمصلحة حيث لا يراها، فيصير عدم ا المصلحة، عنده، مصلحة؛ وهذا يعني أن المطبع لا يفقد حريته فقط، بل أيضا يفقد أن يكون حرا في اختيار حريته، أي يفقد "الحرية في الحرية"؛ وهذا غاية العبودية للإرادة الإسرائيلية، حتى إنها لو خيرته بين التطبيع وعدمه، لاختار التطبيع.

وأما الآثار السيئة التي يحدثها التعبيد في إنسانية المطبّع، فمنها أن خيانته لنفسه، مؤثرا عبوديته على حريته إنما هي خيانة لماهية الإنسان، ذلك أن هذه الماهية تتحدد ملكوتيا بالأمانة؛ فمعلوم أن كل الكائنات أبت حمل الأمانة حين عُرضت عليها إلا الإنسان، فقد قبل أن يحملها، فيكون حمل الأمانة هو الخاصية الملكوتية التي تحدد ماهية الإنسان؛ وليس هذا فحسب، بل إن المطبع اختار أن يخون نفسه؛ والخيانة المختارة ليس فوقها خيانة، إذ أن اختيارها يضادُّ الاختيار الأصلي لحمل الأمانة، كأنها صاحبها يعود إلى أصل الأمانة في عالم الغيب، فيلغيه، نافيا عن الإنسان صفة الكائن الذي تفرد بحمل الأمانة، ومثبتا له صفة "الكائن الذي تفرد بالخيانة"؛ فالتطبيع ليس ممارسة الخيانة فحسب، بل هو إنزال الخيانة منزلة الفطرة الأصلية من الإنسان، وهل من أذى للإنسان أعظم من أن يُحدد بنقيض حقيقته!

وحتى يَرُدّ المرابط المقدسي إلى المطبع مفقود حريته الذي يضر بنفسه، ويخرجه من مختار خيانته الذي يضر بإنسانيته، فإنه يحتاج إلى أن يفصله عن التعلق بعاجل المصالح، كاشفا له كيف أن هذا التعلق يقلب قيمه ويسلب فطرته، مع ما في هذا السلب من ألوان الضياع، وإلا حال، بشتى الطرق، دون وصوله إلى هذه المصالح كأن يُفشل خططه في بث روح التطبيع في محيطه، أو حال، بطرق غير مباشرة، دون وصولها إليه كأن يتصدى للجهات التي تُمكّنه. من هذه المصالح، حتى ينقطع أمله فيها، فيضطر إلى إعادة تقويم سلوكه، متبصرا بمدى إضراره بنفسه وبالإنسان؛ وإن أصر، مع كل ذلك، على طلبه للمصالح، عمل المرابط المقدسي على تحويل وجهته إلى مصالح أخرى من جنسها، إن لم تحفظ. حريته وتدفع خيانته، فإنها قد تدفع أذيته عن الإنسان، فضلا عن الإنسان الفلسطيني، إلى حين أن يعود إليه رُشده.

2.2.3. مقاومة تجليات الإرادة الإسرائيلية في التدبير التطبيعي؛ لما كان أذى الإرادة الإسرائيلية يتعدى إلى الإنسان بما هو كذلك، كان لا بد أن يتجلى هذا الأذى، في تدبير الحاكم المطبّع لشؤون المجتمع، بأوصاف تضادّ القيم الفطرية؛ ثم لما كان هذا الأذى قد بلغ أقصاه، تعلقت هذه الأوصاف بقيم توقع هذا الحاكم في خيانة المحكومين، فضلا عن خيانته لنفسه؛ وإذا كانت خيانة الحاكم لنفسه هنا هو تعبيدها للإسرائيليين، ظالما لنفسه، فإن خيانته للمحكومين هي تعبيدهم للإسرائيليين، ظالما لهم، بحيث يقع المجتمع تحت ظلمين اثنين: "ظلم تعبيد الحاكم نفسه للإسرائيليين" و "ظلم تعبيد شعبه لهم"؛ إذ أن الأمانة التي في ذمته هي "حفظ العدل"، وهو لم يعدل مع شعبه، ولا عدل وواجب المرابط المقدسي أن يعمل على إخراج الحاكم المطبع من ظلمه الناتج عن عبوديتين اثنتين: "عبودية النفس" و "عبودية الشعب"، كاشفا دلائل هذا التعبيد المزدوج في تدبيره للشأن العام ومساوئ تأثيره في وضع الإنسان؛ فلنذكر بعض هذه الدلائل والمساوئ التعبيدية في التدبير التطبيعي التي يتولى المرابط المقدسي كشفها ودفعها. مع نفسه.

أما دلائل تعبيد الحاكم المطبّع، فمنها أن الامتثال للإرادة الإسرائيلية يُفقده الشعور الائتماني بـ"العدل"؛ إذ أن الأصل الائتماني للعدل هو أنه قيمة فطرية مأخوذة من اسم "العدل" من أسماء الله الحسنى، غير أن امتثال الحاكم المطبّع للإرادة الإسرائيلية يجعله يقطع صلته بهذا الأصل، فلا يعود يعتبر "العدل" أمانة؛ إذ أن أمانة العدل توجب عليه الوفاء بمقتضياتها الملكوتية التي تعهد به لربه، بل أضحى يعتبره مجرد

تدبير سياسي يقوم، مبدئيا، في إعطاء ذي الحق، حقه، مَثَله في ذلك مثل أي تدبير سياسي دهراني؛ والأصل في التدبيرات السياسية أن قوامها واحد، وهو "الملك" أو "السلطة" أو "الحكم"؛ فيكون الحاكم المطبع مستعدا لترك حريته على قدر ما يعتقد تحصيله من مزيد الملك الذي توهمه به الإرادة الإسرائيلية.

لئن كان الحاكم المطبّع يتعلق بقوام التدبير السياسي الذي هو الملك، فإنه يقصر عليه هذا التعلق دون سواه، فلا يبالي بسنده الأساسي الذي هو "الرقابة البشرية"، وإلا ما كان نيعبد شعبه للإرادة الإسرائيلية؛ ولا يرى في هذه الإرادة الاحتلالية إلا مباركة لسلوكه المستهتر بهذه الرقابة، ظنا منه، وهو على ما هو عليه من احتجاب العقل وافتقاد البصيرة، أنها لا تريد به إلا مزيد التمكن في سلطته؛ وحيث إنه لا يعبأ بالرقيب البشري إلا أن يكون صوريا، فقد قطع صلته حتى بالأصل الدهراني للعدل البشري[24]، فأضحى لا يراعي في تدبيره، لا عدلا ائتمانيا، ولا عدلا دهرانيا؛ وهذا يعني أن امتثاله للإرادة الإسرائيلية لا يكتفي بتثبيته في ظلمه المعهود، بل يخرجه إلى "الظلم المطلق"؛ إذ بات لا يرقب، في تصرفاته، لا ملكوتا ولا ناسوتا. أصلها

وأما الآثار السيئة التي يُحدثها تعبد الحاكم المطبّع للإرادة الإسرائيلية، فمنها فقده الإحساس بقيمة الإنسان فيه وفي غيره؛ فقد قطعت خيانته لنفسه فطرته عن الملكوتي، والفطرة هي مستودع القيم ولا إنسانية بغير القيم الفطرية؛ كما أن خيانته لأمانة العدل قد أوقعت تدبيره في الظلم المطلق؛ والظلم منتهك لكرامة الإنسان، فما الظن بالظلم المطلق! فكان لا بد أن ينتهي به المطاف إلى أن ينزع عن نفسه صفة "الآدمية"، وهو يمارس، تحسبا لمفاجآت المستقبل، ظلمه على الآخرين، سواء كانوا أبناء شعبه أو أبناء شعوب أخرى استطاعت يده أن تمتد إليهم، مكما الأفواه، ومشتريا الضمائر، وعاقدا الصفقات، ودافعا الرشاوى، بل معطيا البيعة لمن لا يبايع، لا شرعا ولا عقلا، تحت مرأى ومسمع من العالم من أقصاه إلى أقصاه، كل ذلك لأن يد "إسرائيل" ترعاه؛ وهكذا، فإن الحاكم المطبّع ليس له من الإنسان إلا صورة العربي أو صورة الإسلامي، أما روحه، فهي الإرادة الإسرائيلية. وقد لا يستطيع أن يخرج الحاكم المطبع من تبعيته للإرادة الإسرائيلية، ومن خيانته لأمانة العدل التي تضر بآدميته إلا المرابط المقدسي، لأنه أدرى بحقيقة التطبيع وأملك لوسائل التصدي له؛ إذ بات هذا المرابط مقتنعا بأن التطبيع لا يقل شره عن شر الاحتلال، كما بات يرى أن

[24] المقصود بـ«الدهرانية هي فصل الأخلاق عن الدين.

واجب دفع التطبيع (أو الحلـول) مقـدَّم على واجب دفـع احتلال الأرض (أو الإحلال)، نظـرا لأن التطـبيع احتلال للفطـرة، واحتلال الأرض بعـد احتلال الفطرة أيسر منه قبله؛ ثم لأن الطور الجديد من أطوار التطـبيع لم يسبق له نظير، إذ هو "تطبيع الأنظمة العلني"، قلبا السابق مواقفها التي كانت تبدي فيها مناهضة للاحتلال، فضلا عن أن بعض هذه الأنظمة تتخذ هـذا التطـبيع وسـيلة لترسـيخ دعـائم ظـالم حكمهـا م ا، مسـتخفةً شعوبها. لذلك، يتعين على المرابـط المقدسـي القيـام بواجـبين اثـنين: أحـدها، "واجب توعيـة الحـاكم بأخطـار التطـبيع على حكمـه"، إذ أن المعرفة الملكوتية التي تحصلها فطرته تريه ما لا يراه الحاكم؛ والثاني، "واجب توعيـة المجتمـع الـذي يُـدبّره هـذا الحـاكم بآثـار التطـبيع على كيانه"، إذ أن خبرته بالمعاناة التي يلاقيها المجتمع الفلسـطيني تكشـف له ما لا ينكشف لغيره.

أما توعية الحاكم بأخطار التطبيع على حكمه، فقد تكون مباشرة أو غير مباشرة، على حسب مقدار تبعيته للإرادة الإسرائيلية؛ والراجح أن هـذه الأخطار تبتدئ بعزل الحاكم عن المجتمع، لأنه القوة التي يمكن أن يفر إليها، متى استيقظ وعيه وأدرك الخطـر الـذي يحـدق بـه؛ ويلجـأ حليفـه الإسرائيلي إلى خطة العزل هذه، حتى يتمكن من ابتزازه، بحجة حمايته من غضـب الشـعب؛ وتنتهي هـذه الأخطـار بتعـاطي احتلال أرضـه كمـا احتلت أرض فلسطين، مدشّنا له بإقامة القواعد العسكرية عليها؛ إذ أن هذا "الحليف" يتحين الفرصـة الـتي تكـبر فيهـا الهـوة بين الحـاكم وبين المجتمـع إلى الحـد الـذي يتعـذر معـه ردمهـا، هـذا إن لم يجعـل شـبح إسقاط حكمه يلازم خاطره دافعا إياه إلى أقصى التنـازلات، ولـو كـانت التخلي عن مواصلة الاستنزاف لثروات بلاده بدعوى إدخالهـا في مسـار عن المقدسـات، فضـلا الانفتـاح الحضـاري والتقـدم التقـاني والازدهـار الاقتصادي.

ويعمل المرابط المقدسي على تبصـير الحـاكم بهـذه المخـاطر الـتي لا يتوقف حليفه الإسرائيلي عن تعريضه لها، لعله يتنبه إلى مـا يحـاك لـه، ويأخـذ حـذره؛ وقـد يكـون هـذا الاحتيـاط من الحـاكم خطـوة هامـة في طريـق تحريـره من نـير الإرادة الإسـرائيلية؛ فآنـذاك، ينتقـل بـه هـذا المرابـط، عن طريـق الكشـف عن المزيـد من مكـر هـذه الإرادة، إلى خطوة أخـرى قـد تُنهض همتـه إلى التخلص منهـا؛ وهـو، في كـل ذلـك، يرقب اليوم الذي يوقن فيه الحاكم بأن ناصحه لا مطمع لـه، أصـلا، في منازعة حكمه، عسى أن يزداد ثقة به ويطمئن إلى نصائحه، لأن العروج الملكوتي الذي تتمتع به فطرته يُخلّص عملـه من الأغـراض، ناهيـك عن

التسلط على غيره؛ فكل همه هو أن يُفرّغ ذمته من مسؤولية دفع الأذى الإسرائيلي عن الإنسان، فلسطينيا كان أو غير فلسطيني.

وأما عن توعية المجتمع بآثار التطبيع على كيانه، فقد ذكرنا أن المرابطة المقدسية ليست بالضرورة مرابطة بـ"بيت المقدس"، وإن كانت هذه المرابطة الأخيرة هي الشاهد الأمثل عليها، وإنما هي. حالة رباطية عامة يمكن وجود مظاهرها في كل المجتمعات التي تتبنى القضية الفلسطينية أو تتعاطف معها، وبالأولى في المجتمعات التي يباشر حكامها التطبيع مع الكيان الإسرائيلي، على الرغم من سخط أهلها على مبدإ التطبيع، فضلا عن الممارسات التطبيعية في أوساطهم، إن مكشوفة أو مستورة؛ وإذا كان الأمر كذلك، فقد لزم أن يقوم العمل التوعوي للمرابط المقدسي، في هذه المجتمعات المكرهة على التطبيع، بشروط ثلاثة هي عبارة عن أشكال ثلاثة من الوصل:

أ. إعادة تأسيس القيم على الصفات الإلهية؛ يتولى المرابط المقدسي إحياء القيم الأصلية التي تنافي قيم التطبيع كالمصالح والمكاسب المادية، وذلك بالتنبيه على أشكال التعلق بعارض وزائل الصفات التي غطت الفطرة، وكذا التنبيه على ضرورة الرجوع إلى الفطرة من أجل تحصيل القدرة على دفع العبودية للإرادة الإسرائيلية؛ فإذا كان الأصل في القيم التي أفضت إلى هذا الاستعباد هو الصفات العارضة والزائلة التي علقت بالفطرة، فقد وجب أن يكون الأصل في القيم التي تفضي إلى التحرّر هو الصفات المضادة، أي الصفات الثابتة والباقية، وما تلك إلا الصفات الإلهية لذلك، لا يفتأ المرابط المقدسي يحث أبناء مجتمعه على التفكر في هذه الصفات الإلهية التي تدل عليها "الأسماء الحسنى" من جهة أنها مصدر القيم الأصلية التي تختزنها فطرتهم؛ ودوام التفكر فيها يجعلهم يتعلقون بها، متلبسين بالقيم التي تتفرع عليها، إذ أن إقبالهم عليها هو إقبال على خالقهم كأنهم يعرجون إليه في باطنهم، فإذا هي استعانوا أعينوا، وإذا سألوا أجيبوا؛ فيتبين أن الشرط الأول لتحرير المجتمع المكره على التطبيع هو استرجاع أهله لفطرتهم، ولا استرجاع لها إلا بتعلقهم بصفات ربهم.

ب. إعادة تأسيس الإسلام على الصبغة المقدسية؛ يدعو المرابط القدسي مواطنيه إلى التفكر في الصلة بين "بيت المقدس" وبين دينهم بما يُقدرهم على دفع التحدي الاستعبادي الإسرائيلي؛ إذ لكل تحد تعبيدي التفكر الذي يناسب دفعه؛ بمعنى آخر إنه يحثهم على أن يعيدوا صياغة العلاقة بين "الإسلام" وبين ما أطلقنا عليه "الصبغة المقدسية"؛

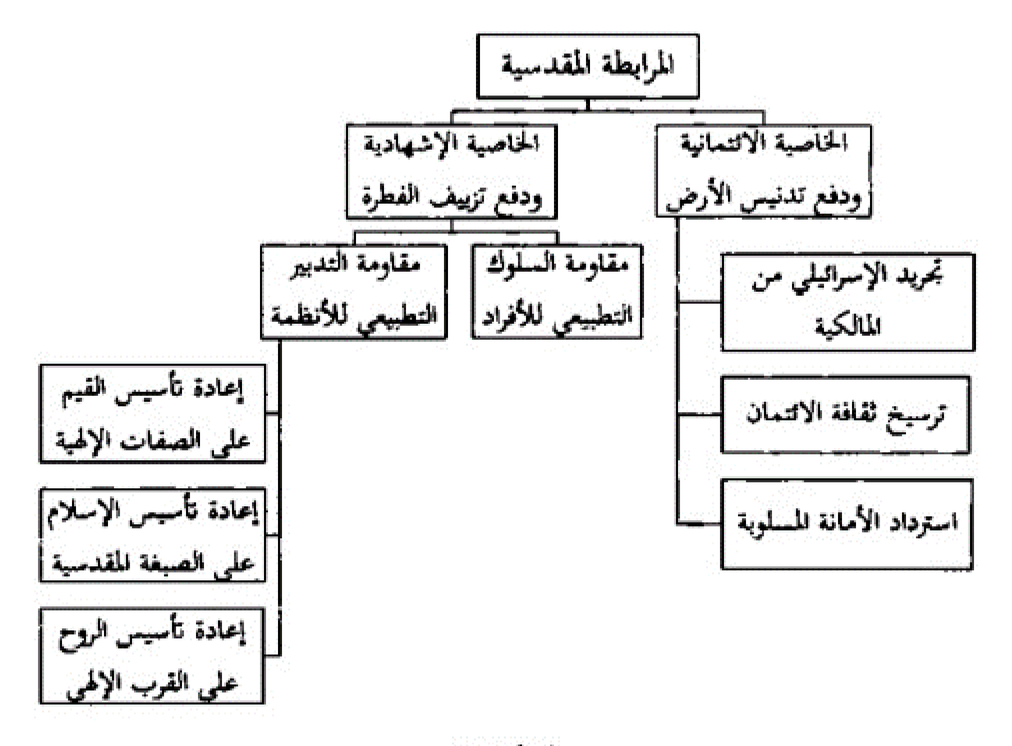
فهذه "الصبغة المقدسية" هي، كما سبق، "الموروث الروحي الذي اختص به بيت المقدس والذي أسهم فيه كل الرسل والأنبياء بأشكال وأقدار مختلفة"؛ وتقوم إعادة صوغ العلاقة بين الإسلام والصبغة المقدسية في الخروج عن التصور الضيق والظاهر الذي يجعل ما حدث، في بيت المقدس للرسول صلى الله عليه والسلام واحدة من المعجزات الدالة على رسالته ومكانته أو يجعل منه مجرد طور من أطوار الدعوة بمكة المكرمة، إلى تصور أوسع مدى وأبعد غورا يجعل من "الصبغة المقدسية" عبارة عن روح الإسلام نفسها، بحيث لا إسلام بغير هذه الصبغة؛ وقد أشرنا إلى أن القرآن الكريم عبر عن هذه الروح باسم "إسلام الوجه الله"؛ فـ "الصبغة المقدسية" و"إسلام الوجه الله " اسمان لحقيقة واحدة، فـ"بيت المقدس" إنما هو "بيت إسلام الوجه الله".

وعلى هذا، يقوم عمل المرابط المقدسي في أن يبصر مواطنيه بأن التطبيع يجعلهم يضيعون، حتما، "الصبغة المقدسية" التي هي جوهر الإسلام، فإن ضاعت، ضاع الإسلام كما ضاعت نسبتهم إليه؛ فإذن، يتبين أن الشرط الثاني لتحرير المجتمع الذي أكره على التطبيع مع الإرادة الإسرائيلية هو الاعتقاد بأن روح الإسلام التي لا إسلام بدونها هي "إسلام الوجه الله"، وأن "إسلام الوجه الله" هو التعبير القرآني عن "الصبغة المقدسية".

ج. إعادة تأسيس الروح على القرب الإلهي؛ يعتقد المرابط المقدسي أن تجديد الإنسان لا يحصل إلا بتجديد ،روحه، لأن حقيقتها هي أنها القوة المولدة لكل أنواع التجديد الأخرى، معنوية كانت أو مادية؛ ويقيم المرابط المقدسي هذا التجديد الروحي للإنسان على دعامتين أساسيتين هما: "تجديد الصلة بصفات الإله" و "تجديد الصلة بذات الإله"؛ أما تجديد الصلة بالصفات الإلهية، فيُدركه الإنسان بالعودة إلى أصل الفطرة، مجددا الوفاء بميثاق الإشهاد؛ وأما تجديد الصلة بالذات الإلهية، فيدركه الإنسان بالصبر على الصلاة، مجددا الوفاء بميثاق الأمانة، حتى يحصل الحالة السجودية التي تجعله أقرب ما يكون إلى ربه، حتى في الأعمال الدنيوية المعهودة؛ إذ يجد في قلبه، وهو يأتي هذه الأعمال، ما يجده الساجد في صلاته؛ ولا يخفى على ذي بصيرة أن شعور الإنسان في كل الأعمال، بمعية الرحمان تبعث في فطرته روحا ملكوتية قادرة على كسر الأصنام وقهر الطواغيت.

ولئن كان المرابط المقدسي لا يعنيه لأول وهلـة إلا التصـدي للطـاغوت الإسرائيلي الذي أخذ يسـتعبد قلـوب العـرب والمسـلمين، فـإن جهـاده التجديدي يشمل كل إنسان؛ فلا شك أن في عبودية الإنسان لغـير اللـه أيا كان موتا لإنسانيته، وأن في تحرره مما سواه حيـاةً لهـذه الإنسـانية؛ لذلك، فإذا عمل هـذا المرابـط على تجديـد الـروح في أفـراد مجتمعـه، دفعـا لاسـتعباد الإرادة الإسـرائيلية لهم، فإنمـا يعمـل على تجديـدها في الإنسان بما هو إنسان، دفعا لاستعباد أي إرادة له كائنة ما كانت؛ وحيث إنه لا طاغوت، في هذا الزمان، بلغ مبلـغ إسـرائيل في تعبيـد الإنسـان، إحلالا بأرضـه أو حلـولا بفطرتـه، فلا بـد أن مَن يقـدر على التحـرر من العبودية لإرادة إسرائيل، يكون أقدر على أن يتحرر من سواها.

فيتضح أن الشـرط الثـالث لتحريـر المجتمـع المكـره على التطـبيع مـع إسرائيل هو تحقق أبنائه بالصلتين الملكوتيتين: "الصلة بالصفات الإلهية بواسطة الملكـة الفطريـة"، و"الصـلة بالـذات الإلهيـة بواسـطة الحالـة السجودية"؛ ومتى قام أهله بهذا الشرط على مقتضاه، أيقنوا بـأن ربهم مؤيدهم بروح ملكوتيـة تُقـدرهم على التخلص من الحلـول الإسـرائيلي، بل تنزلهم منزلة من حمل أمانة تجديد الإنسـان في هـذا الزمـان الـذي ذهب حيـاؤه، حـتى يقـدر هـذا الإنسـان الجديـد على مواجهـة أشـكال الحلول الطاغوتي التي لا تبرح تتربص به.



الشكل 2

وحاصل القول في هذا الفصل الأول هو أن المقاربة الائتمانية توجب رد صورة الإيذاء الإسرائيلي للفلسطينيين، أرضا وإرثا إلى روح هذا الإيذاء، وهي: "إيـذاء الإلـه" و"إيـذاء الإنسـان"؛ وقـد وضـحنا كيـف أن احتلال الأرض الفلسطينية، أي "الإحلال"، تجلى في منازعة الإسـرائيليين الإلـه في صـفة "المالـك"، إذ أرادوا أن يملكـوا هـذه الأرض ملـك الإلـه لهـا؛ ووضحنا أيضا كيـف أن احتلال الإرث الفلسـطيني، أي "الحلـول"، تجلى في "قلب القيم"، ويـؤدي هـذا القلب إلى اختلال علاقــة الفلســطيني بالزمان، وبالتالي بالمكان؛ كما تجلى في "سلب الفطرة"، ويـؤدي هـذا السلب إلى التطبيع، وحقيقته أنه تضييع للطبيعة وتضييع للـروح وتضـييع للقداسـة وتضـييع للحيـاء، متمثلا في "نسـيان النظـر الإلهي" و"فقـدان التمييز الأخلاقي" و "ممارسة النفاق على أوسع نطاق.

كما أن المقاربة الائتمانية توجب ردَّ صورة الأرض المحتلـة إلى روحهـا، وهي: "القداســة" ورد صــورة الفطــرة المحتلــة إلى روحهـــا، وهي: "الأصالة"؛ والمرابطة المقدسية إنما هي استرجاع قداسة الأرض الــتي دنســها الإســرائيلي واســترجاع أصــالة الفطــرة الــتي زيفهــا الحلــول الإسرائيلي.

لـذلك، اقتضـى تصـدي هـذه المرابطـة لتـدنيس الأرض المـؤذي للإلـه الرجــوع إلى "ميثــاق الأمانــة" المــأخوذ من الإنســان؛ وجــاء على ثلاث مــراتب؛ إحــداها، رفــع المالكيــة الإســرائيلية عن أي شــيء في أرض فلسطين، بدءا بالدولة وانتهاء بالوجود؛ والثانية، ترسيخ ثقافة الائتمــان، وتشـمل التفكـر في الآيـات التكوينيـة والتكليفيـة، وحفـظ المـوروث الروحي، ورؤية الإرادة الإلهية في العالم، وتقديم الوفـاء بـالواجب على اسـتيفاء الحـق؛ والثالثـة، اسـترداد الأمانـة المسـلوبة، ولـه شـرطان، أحدهما، أن يكون مقصد : نـة، لا تحصـيل ملـك بعينـه، ولا حفـظ أمانـة بعينها، وإنما حفظ ميثاق الأمانة أو حفـظ من الأمانـة نفسـه؛ إذ أوشـك هذا العالم أن يكون "عالم ما بعد الأمانة"؛ وعلامـة ذلـك تنسـيم الأمـة" و"صـفقة القـرن"؛ والثـاني أن يكـون منهجهـا، لا الوقـوف عنـد القـوة المادية، وأنها إستها إلى القوة الروحيـة، ولا الانتصـار في كيفيـة واحـدة بعينها للمواجهة ، وإنما التعاطي لكن كيفيات الممكنة، ولا الجمـود على هـذه الكيفيـات، وإنمـا الابتكـار الـدائم لهـا، ولا تخصـيص مـال بـأرض فلسـطين، وإنمـا تعميمـه على الأرض كلهـا، مـع حفـظ خصوصـية كـل رباط ، حينها كان.

أما تصدّي المرابطة المقدسية لتزييف الفطرة المـؤذي للإنسـان، فقـد اقتضى الرجوع إلى "ميثاق الإشهاد المأخوذ هو أيضا من الإنسان وجاء. هو الآخر، على ثلاث مراتب إحداها، مقاومة تجليات الإرادة الإسـرائيلية في سلوك الفرد المطبّع، وذلـك ببيـان خيانتـه لأمانـة الحريـة الـتي في ذمته واقعا في تعيد نفسه لهذه الإرادة؛ والثانية، مقاومة تجليات الإرادة الإسرائيلية في تدبير الحاكم المطبّع، وذلك ببيـان خيانتـه لأمانـة العـدل التي في ذمتـه، واقعـا في تعبيـد نفسـه وشـعبه لهـذه الإرادة، والثالثـة، توعيـة المجتمـع الـذي أُكـره على التطـبيع بمـدى الضـرر الـذي يُلحقـه بكيانـه، وذلـك بإعـادة تأسـيس القيم على الصـفات الإلهيـة، وإعـادة تأسيس الإسلام على الصـبغة المقدسـية، وإعـادة تأسـيس الـروح على القرب الإلهي.